الشرق في عيون الغرب



تأليف

الدكتور ضرغام الدباغ





الشرق في عيون الغرب

الطبعـة الأولـى

1437هـ - 2016م



الأكاديميون للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية
عمان – مقابل البوابة الرئيسية للجامعة الأردنية
تلفاكس : 0096265330508
جــوال : 00962795699711
E-mail: academpub@yahoo.com

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2015/1/331)

رقم التصنيف: 320

المؤلف ومن في حكمه:

ضرغام عبدالـلـه الدباغ

الناشر
الأكاديميون للنشر والتوزيع
عمان – الأردن

عنوان الكتاب:

الشرق في عيون الغرب

الواصفات:

/ السياسة//التاريخ العربي/

ISBN :978-9957-590-32-1

الشرق في عيون الغرب

تأليف
الدكتور ضرغام الدباغ



الأكاديميون للنشر والتوزيع

2016م

أولاً: مقدمة

بين الشرق والغرب: هناك حروب ومنافسات، نعم، ولكن أيضاً مواجهات إنسانية، وتبادل ثقافي وتجاري ومعرفي وهو الأهم ...! مما قد لا يتسع له دفتي كتاب واحد مهما بلغت سماكة هذا الكتاب ومهما بذل فيه صاحبه من جهد .

ترى هل هو مستحيل عمل كهذا ..؟

كلا ... لا يوجد مستحيل في عالم البحث والعلم. ولكن الأمر بتقديري أكبر من أن يستطيع فرد واحد مهما بلغ علو كعبه، إتمامه بطريقة لا عيب فيها ولا خطل. والأمر هنا لا يتعلق بكفاءة أي باحث أو عالم، بل هو ضرب من عمل موسوعي يساهم فيه التيولوجي والفيزيائي والكميائي والفنان والعسكري وعلماء الآثار واللسانيات والأطباء والمهندسين والإنسانيين من علماء اقتصاد وسياسة وربما غيرهم على التعدد الواسع لأنشطة الحياة والفكر الذي دار لعشرات القرون، منذ عصور ما قبل الميلاد وإلى حد الآن بين الغرب والشرق.

ليست مصادفة أن تنشر عالمة ألمانية هي زيغريد هونكة، Sigrid Hunke كتاباً أشتهر في الشرق والغرب على السواء، ترجم إلى العربية بعنوان: شمس العرب تسطع على الغرب: وعنوانه الأصلي باللغة الألمانية: Allahs Sonne über dem Anbendland ، كتاب يقع في حوالي الأربعمائة صفحة الذي طبع في ألمانيا عدة طبعات وذاع صيته في الشرق كما في الغرب.

ما هو الغرب وما هو الشرق..؟

منذ العصور القديمة أصطلح على تسمية البلدان التي تقع في مشرق الشمس، شرقاً، وإلى الغرب منها غرباً. على أن تحديدات جغرافية طبوغرافية ساهمت وفي وضع مثل هذه الحدود. حيث اعتبر البحر الأبيض المتوسط الفاصل بين أوربا وأفريقيا حداً طبيعياً ومضيق البسفور وجبال الأورال التي تقسم روسيا الفسيحة المترامية الأطراف إلى شرقية وغربية، وذلك في عصر لم تكن فيه الأطالس قد وضعت وحدود القارات قد رسمت.

الشرق موطن الحكمة، الشرق موطن المعرفة الأولى، الشرق علم العالم الحرف والرقم والدولاب، حتى قيل في أوربا: أن كل معرفة يعود جذرها إلى الشرق.

وإذا كان رصد كل هذه النشاطات لباحث واحد عملاً أشبه بالمستحيل، فلنقم إذن بتجميع كل مباحثنا بهذا الصدد وبتراكم جهود باحثين ومحققين من كل أقطارنا نكون قد أسسنا بداية لعمل كبير يبدأ بخطوة ...

وهذا العمل هو مجموعة من البحوث والمقالات البعض منها مترجم والأخرى بحوث لنا كنا قد نشرناها في دوريات تخصصية، أو مواقع تعني بالبحث والتقصي. وقد آثرنا عدم التدخل في البحوث التي قمنا بترجمتها، رغم ملاحظاتنا الشخصية على بعض ما ورد فيها، فالأساس في فكرة هذا الكتاب هو معرفة رؤية كتاب الغرب وأحكامهم على التطورات السياسية والثقافية والاجتماعية لأقطارنا العربية. إن معرفة فحوى وحيثيات تلك الرؤية مسألة

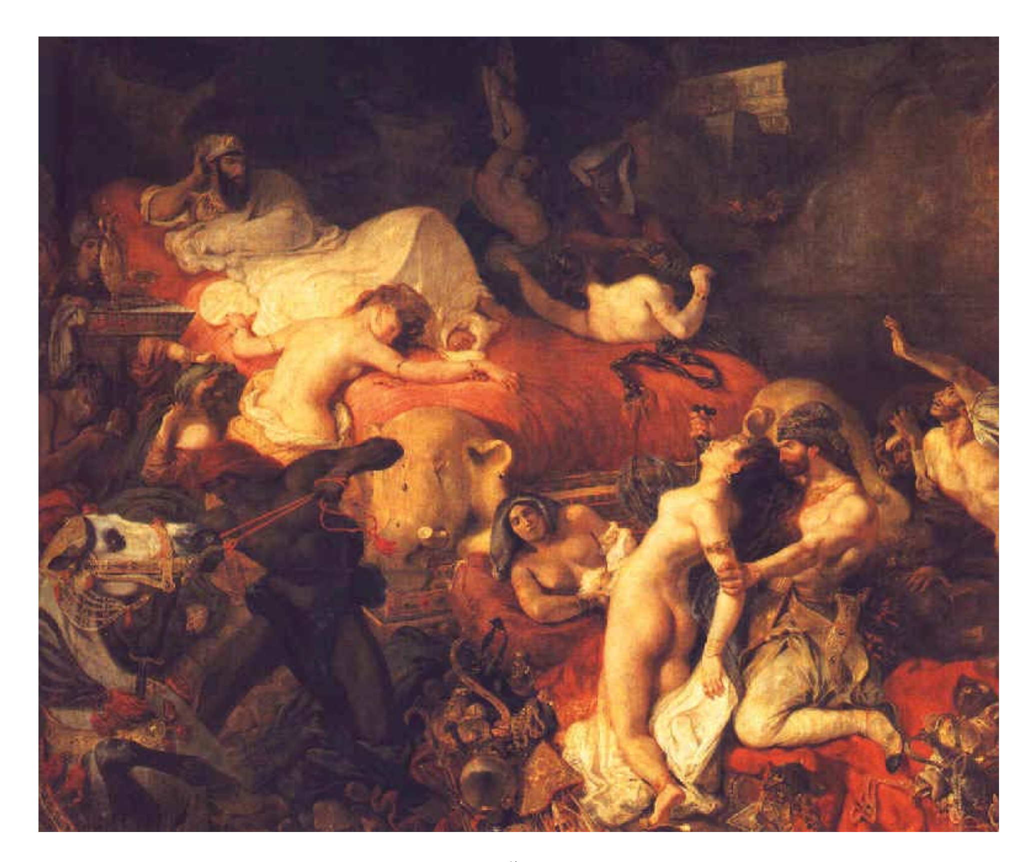
كبيرة ليس بوسع هذا الكتاب تغطيته، ولا بـد مـن بـاحثين آخـرين أن يـدلوا بـدلوهم في هـذا الجب العميق.

إنني أعتقد أن جهداً ينبغي أن يبذل من العلماء والكتـاب في الشرق والغـرب عـلى حـد السواء، جهد يظهر عمق الصلات الثقافيـة والإنسـانية بـين الشرق والغـرب، جهـد قامـت عليـه الحضارات في العـالم أجمـع، فـلا أحـد بوسـعه أن يقـيم إحصـاءاً عـن الزيجـات المختلطـة، عـن مجتمعات تهوى التقارب، عن شعوب تريد أن تعبر عـن إرادتهـا في التقـارب والمحبـة لا العـداء والنفور والكراهية.

ولتكن هذه الخطوة إضافة لجهد الآخرين ... وجهد يتطلع لجهود آخرين

دعونا نحفر قنوات الحب .. ليصاب دعاة البغضاء باليأس

ثانياً: لقاء الحضارات



اللوحة: موت ملك

Eugene Delacroix (1798-1863)

يوجين ديلاكروا (1798 ـ 1863)

ثانياً: لقاء الحضارات

الشرق لـلـه

الغرب لـلـه

أرض الجنوب و أرض الشمال

تسلمان في يد الرحمن

في هذه الكلمات البليغة للشاعر الألماني الكبير يوهان فولفجـانج جوتـه، بيـان واضـح أن البشر أينما كانوا، هم عباد لرب واحد. تعيش على ظهر كوكب واحد، وأن الإنسـان أيـنما وجـد، إنما هو من خلق الـلـه الواحد الأحد رب البشر جميعـا، سـواء كـانوا في الشرق أو في الغـرب، في الشمال أو في الجنوب. وأمام الباحثين في بطون التاريخ ومصادره، نجد أن القضية الإنسانية ذات جذر واحد على كافه الأصعدة، يتمثل بسعي الإنسان في كل زمان ومكان إلي الخـير، والخـير هـو عالم رحب واسع يقبل ويتحمل ويتقبل خيارات كثيرة بعكـس الشر والحقـد الـذي يـؤدي فقـط وحتما إلى الدمار والظلم والظلام.

وعبر العصور والأزمان، كان طريق التعاون والتعارف بين بني البشر واستطراداً، الصـداقة يطول ويتسع لفعاليات كثيرة: تجاريه وثقافية وسياسـية. فالسياسـة هـي أصـلا مشروع لخدمـه الخير والتعاون، هكذا كانت قوافل التجار من بلاد الرافدين (بابل وآشـور) ترتـاد منـاطق وسـط أوروبا منذ العصور ما قبل الميلادية، فقد وجدت آثار تدل عـلى هـذه العلاقـات في شرق أوروبـا (المناطق السلافية) وتقترب تلك الآثار حتى تصل إلى سواحل بحر البلطيق وبحر الشـمال، تشـير لعلاقات تجاريه حتى مع البلدان الإسكندنافية .

ومن المؤكد أن هذا التعامل اتخذ أبعاد أوسع مع حلول العصور الميلادية وفجر الحضارة الإسلامية، حيث تعددت الصعد التي نشطت فيها تلك العلاقات، ودون شك، فأن العلاقات التجارية كانت في مقدمه تلك الأنشطة، إذ كانت القوافل تقصد أواسط أوروبا وشمالها من محاور متعددة. فمن المعلوم أن طريق الحرير كان ينطلق من الصين إلى أواسط آسيا ثم يتخذ طريقه متفرعاً ومتشعباً عبر المناطق الروسية إلى السلافية، ومن آسيا الوسطى عبر بلاد فارس إلى وادي الرافدين، إلى بلاد الشام حيث سواحل البحر المتوسط، متواصلا إلى بلاد الأناضول (تركيا حاليا) إلى البلقان واليونان وأوروبا الوسطى.

نعم، كانت التجارة العلامة الأكثر بروزا، ولكن دون إغفال التبادل الثقافي. ونحن نعلم أن هيرودوت الإغريقي جاء إلى مصر ووادي الرافدين ومكث في بابل وكذلك فعل فلاسفة آخرون، وسوف تتواصل في القرون اللاحقة دونما توقف، العلاقات الثقافية إذ كان هناك تبادل ثقافي ومعلوماتي مهم وواسع منذ العصور قبل الميلادية وبصفة خاصة عن حركه النجوم وأسس علم الفلك.

ولعل الاتصال الأكثر شهره، تمثل في السفارات والرسل وتبادل الهدايا بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وشارلمان في القرن الميلادي الثامن. والمهم في هذه السفارات أنها كانت تمثل المساعي الدبلوماسية لإقامة محور سياسي له أبعاده المختلفة بين بغداد/ عاصمة الخلافة العربية الإسلامية، وآخن حيث كانت عاصمة كارل الكبير (شارلمان)، وكان ذلك في عام 797 ميلادية، وتلك المساعي كانت تهدف إلى إيقاف الخطر البيزنطي وكذلك مخاطر الدولة العربية في

الأندلس على كلتا الإمبراطوريتين اللتان كانتا تمثلان مخاطر مشتركة للطرفين. وهكذا تقدمت المصالح الإستراتيجية: الاقتصادية / السياسية على سواها.

وبرغم أن الحروب الصليبية 11ــ 13 من القرون الميلادية، شكلت نقطه سلبية في العلاقات العربية / الإسلامية ـ الأوربية ـ المسيحية، إلا أنها مثلت في الوقت نفسه فرص مناسبة لتبادل الخبرات في حقول كثيرة، ثقافية بالدرجة الأولى، وفي تطوير وسائل الإنتاج أيضا. فقد كانت هناك بالتأكيد حروب ومعارك، ولكن كانت هناك صفحات إنسانية أيضا. وكان قيصر ألماني قد تأثر بالثقافة العربية حتى أتقن لغتها وأحب العرب (القيصر فريدريك الثاني ـ توفي عام 125) وكان محباً للسلام، كارها للحرب ضد العرب المسلمين.

مثل الشرق الأوسط (بما في ذلك شمال أفريقيا) بؤره إشعاع وجذب، هكذا كان الأمر عبر التاريخ في الصلات السياسية والثقافية والاقتصادية، الشرق الذي اجتذب منذ عصور التنوير موجات جديدة من القادمين من الغرب، ومثلت ذروه تصاعد الفعاليات الثقافية التي أثارتها وحركتها مؤشرات عصر النهضة ومن ثم عصر التنوير، فجاء الباحثون والآثاريون و الجغرافيون والمؤرخون. ثم تأسست فيما أطلق عليها بحركة الإستشراق، والمستشرقين الذين جاءوا إلى البلاد العربية، مصر والعراق وبلاد الشام، بدرجه رئيسيه باعتبار أن هذين الأقطار تمثل حجر الأساس في حضارة الشرق بل والحضارة العالمية بأسرها، أي الحضارة التي نشأت في وادي الرافدين ووادي النيل، وبلاد الشام.

وبذات الدرجة من الأهمية، لم تكن اكتشافات الاركيولوجيون الألمان والفرنسيون والإنكليز بسيطة. إذ كان لاكتشاف حجر رشيد وفك ألغازه على يد العالم الفرنسي شامبليون، والتي منها أمكن قراءه الخط السومري والبابلي

ولغات ولهجات أخرى، وبذلك أضيفت مساحات أخرى مهمة للثقافة العالمية، قانونيـه وعلميـه وفنية ما تزال خاضعة حتى الآن للدراسة والمراجعة، وما زالت الاكتشافات متواصلة وما زال فك المزيد من الأسرار يضيف باستمرار للثقافة والأدب العالمي نتائج ومعطيات كثيرة.

بيد أن التطور في وسائل المواصلات سهل من جهة تنقلات الجيـوش، ولكـن للأسـف كان هناك من يستغل التطور العلمي من اجـل تصـنيع السـلاح وتسـويق بضـائع أخـرى، واقصد هنا بالضبط: موجه الحملات الاستعمارية التي غزت بلـدان الشرق وأسسـت نظـما وعلاقات استعمارية تسيء قائمة على التوسع، والضم والإلحـاق، وفـرض الهيمنـة السياسـية والاقتصادية، ولطن أيضاً فـرض أنمـاط ثقافيـة، وأطـر أسـاءت إلى العلاقـات الإنسـانية بـين الشعوب والحضارات.

وبرغم ما تحمله هذه المرحلـة مـن مـرارة، إلا أن التواصـل الثقـافي اسـتمر وكـان رسامون كثر أبرزهم الفرنسي يوجين ديلاكروا والروائي غوستاف فلـوبير وآخـرون توجهـوا إلى الشرق وعكسوا في أعمالهم الكثير من خصائص الحيـاة هنـاك، وموسـيقيون أبـرزهم فيردي وروائيون أبرزهم البريطانية أجاثا كريستي. ومنهم من تفاعل وجدانياً مع الشرق مـنهم الموسـيقار الـروسي كورسـاكوف، الـذي كتـب شـهرزاد (Festival in Baghdad) مستوحياً أجواء وسحر بغداد في القرن الثـامن مـيلادي، والإيطـالي روسـيني الـذي كتـب واحدة من روائعه: حلاق اشبيلية، مستوحيَاَ أجواء الأندلس في ازدهارها، كـما شـاعت في الغرب قصص وروايات ألف ليله وليله، والبساط الطائر، علاء الدين والمصباح السـحري، عـلي بابـا وغيرهـا. كـما يتـداول المثقفـون الأوروبيـون وعـلى نطـاق واسـع في العصـور

الحديثة الملاحم البابلية والسومرية وأشهرها ملحمة كلكامش وغيرها من الملاحـم التـي تنتمـي إلى أدب وادي الرافدين ق.م ، لما تنطوي عليها من صور عميقة، إنسـانية واجتماعيـة وسياسـية، بل ليس نادرا أن نستمع إلى الموسيقى العربية في كل مكان في أوروبا، وقد يكون ذلك في الأوبـرا أو حتى في المقاهي.

والإيطاليون الذين كانوا روادا في دراسة الفلسفة وعلى مقربه من الأنـدلس، لـذلك كـان التفاعل قويا ومؤثراً، حيث قـام الفيلسـوف العـربي ابـن رشـد بإعـادة كتابـه مؤلفـات أفلاطـون وأرسطو، فتأثرت طائفة كبيرة من الفلاسفة الإيطاليين بابن رشد حيـث تأسسـت جامعـة بادوفـا التي تخصصت بالمنهج العلمي لأبن رشد ودراساته وأبحاثه الفلسفية، التي كان لها دورها البارز في تبلورات ثقافية لاحقه وفي تطور الفلسفة في أوروبا.

إن هذا العمل يهدف إلى إبراز الخير والجـمال في التعـاون واللقـاء... حقَـاَ إن العـالم قـد أصبح صغيرا، وان تبادل الثقافات أصبح أمراً محـتماً ... وإن الحيـاة المشـتركة عـلى ظهـر كوكـب واحد، يعني التعايش والتبـادل المعـرفي، وإن الصراعـات في ظـل شـيوع أسـلحة الـدمار الشـامل وانتشارها، يعني خراب كوكبنا الجميل، وأن نضاعف من إمكانية ارتشـاف المزيـد مـما أنجزتـه ويمكن أن تنجزه حضارات وثقافات عديدة في إطار من الصداقة والود وليس في إحتدام التناقض والكراهية والعدوان. وعلى كل المثقفين والمتحررين من الضغوط، الذاتية منهـا والموضـوعية، أن يرفعوا شعار: لقاء الحضارات، لـذلك فـإن عنـوان لقـاء الحضـارات سـيحضى بـرضى واستحسـان الكثيرين، ولكن ربما استياء بعض آخر نأمل أن لا يكون كبيراً.

إنني أريد بذلك التأكيد على أن لقاء الحضارات في تفاعلـه ينـتج الروائـع والأعـمال الخالـدة، والصراع لا يخلف سوى الدمار والغيوم السوداء.بل أن الحضـارة الإنسـانية بأسرهـا مـا هـي إلا نتـاج تفاعل حضارات وإسهامات لأمم شعوب كثيرة وأن هذا الصرح الشامخ الذي نـراه اليـوم، مـا هـو إلا نتاج الإنسانية عبر تأريخها الطويل شاركت فيه كل الأمم، وربما حتى شعب الاسكيمو.

وطالما ليست بأيدينا أدوات قياس دقيقه وحاسمة، فأنه قد يتعذر علينا قيـاس مشـاركه أي طرف. لذلك نحن مضطرون للقول: أن أي مسـاهمة مـن أي طـرف في هـذا الصرح الشـامخ تؤشر وتسجل أصحابها في قائمة الشرف.

نعم، إن التعاون يخلق المحبة ويوطد العلاقات ويعمقها بـل ويجـذرها، فـيما لا يخلـف التعصب والتطرف سوى الخراب والدمار ولا ينـتج سـوى الكراهيـة. ونريـد في هـذه المسـاهمة المتواضعة الإشارة إلي عمل خلاق، إبداعي ساهم فيه:

أولا: ملك عراقي شجاع، عالي النفس...

ثانياً: رسام فرنسي منح في لوحته القوة حيث يجب أن تكـون، والكبريـاء والفخـر حيـثما كان ذلك ضرورياَ. والنعومة والجمال الذي تقدمه لنا الحياة بسـخاء لا يفسـده سـوى الوحشـية والعنف والاغتصاب.

وثالثاً : شاعر بريطـاني، جعـل بطـل هـذه الـدراما (الملـك الآشـوري ـ البـابلي، العراقـي) يتحدث إلينا ويوجه لنا وللتاريخ خطابه الأخير .

أتني أتسائل هنا، كيف كان لنا أن نحتفظ بالأبعاد الإنسانية والتاريخ بمعناه الفنـي الرفيـع، للملـك الآشـوري دون ريشـة الرسـام الفـرنسي ديلاكـروا، ودون

قصيدة الشاعر البريطـاني اللـورد بـايرن. ألـيس في ذلـك دليـل سـاطع عـلى جـمال وروعـة لقـاء الحضارات وليس صراعها وفي تراكمها تحرز البشرية التقدم ؟

آن المتشائمين ومطلقي الشعارات السوداء يريدون منا أن نشعل نيران الكراهية والحقد. ومن اجل ذلك ترى كم لوحة رائعة علينا أن نحرق، منها رائعة ديلاكروا هذه بل وأيضـا اللوحـة الجميلة المعبرة ليوليوس كيوكرت، هارون الرشيد يسـتقبل في بلاطـه ببغـداد رسـل كـارل الكبـير (شارلمان). يريدون أن يقلع العالم عن سماع حلاق أشبيليه رائعة روسيني، وأن نلعن كورساكوف الذي أبدع شهرزاد، وان نوجه الشتائم لغوته لأنه كتب الديوان الشرقي. وعلى أطفالنا أن ينسـوا مغامرات سندباد وعلي بابا والبساط الطائر، وكم هائل لا يعد ولا يحصى من المنجزات العلميـة في: الطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والفلك، وكل ذلك مقابل ماذا ؟....وترى هل لبئر الحقـد والكراهية من قرار ونهاية ؟

أنني أريد آن أقـول لمـواطني الشرق أولاَ ثـم لمـواطني الغـرب، مـا قالـه الشـاعر الألمـاني العظيم: الشرق للـه والغرب للـه . أننا جميعـاَ أخـوة في الإنسـانية، نعـيش عـلى ظهـر كوكـب واحد، وما أصغر هذا الكوكب .

دعوا نهر المحبة والتعاون يجري، علينا أن لا نقيم العوائق في طريقه، بل لنساهم جميعا أن نكون قطره خـير ومحبـه في هـذا النهـر. إن المهمـة تبـدو صـعبه ولكنهـا ليسـت مسـتحيلة وبإسهام الجميع ستصبح سهله ويسيره واني آمل أن تكون هذه المسـاهمة قطـره في هـذا التيـار الرائع، تيار الحضارة الإنسانية العالمية، دون تعصب أو تطرف، بل بالحب والعمل المشترك .

لم تستعد بلاد الرافدين الاستقرار والهدوء بعد سقوط الدولة البابلية، إلا بعد 500عاماً من النزاعات والحروب المحلية وأنظمه الحكم الصغيرة، وذلك عندما تمكن الآشوريون الذين كانوا قد أقاموا دولتهم في شمال العراق واتخذوا من نينوى عاصمة لهم ثم تمكنوا من بسط سيطرتهم وسلطانهم على بلاد ما بين النهرين بأسره، بما في ذلك العاصمة القديمة بابل. بل أنهم نجحوا بإقامة إمبراطورية عملاقة، اتسعت في جميع الاتجاهات.

والآشوريون لم يكونوا غرباء عن بلاد الرافدين. إذ كانوا متواجدين في أعالي نهر دجله منذ ألاف السنين، ثم تمكنوا من تأسيس إمبراطورية قويه وواسعة، تواصل على استلام عرشها 116ملكاً، وبذلك فأنها كانت الأكثر استقراراً من سابقاتها من الإمبراطوريات والدول، بما في ذلك دوله بابل العظيمة التي لم يتوارث الملك فيها إلا 36 ملكاً.

ازدهر الأدب والفن في الدولة الآشورية (17 ـ 605 ق.م)، وتطورت المنجزات وتجاوزت عما كانت عليه في العهود السابقة، وكان ذلك مترافقاً مع الاستقرار السياسي واتساع نفوذهم الذي بلغ سواحل الخليج العربي جنوباً، ودوله عيلام شرقا، وحتى جبال أرمينيا شمالاً، والى البحر المتوسط غربا (بحر آمور العظيم) بما في ذلك قبرص ومصر وشبه الجزيرة العربية. إمبراطورية وقوة عظمى.

وقد اكتسب الملوك الآشوريون المجد، ومنهم على سبيل المثال الملكة شامورامات وهو ما يعني الاسم الجميل وتعرف أيضاً باسم سميراميس، وقد نالت المجد بفضل سياستها الحكيمة ودولتها ذات الأجهزة الإدارية المحكمة،

وبميلها إلي الفن المعماري. ومنهم أيضاَ الملك سرجون الذي كان يحمل لقب (الجندي الشجاع) بسبب قيادته الناجحة للجيوش، وكذلك الملك سنحاريب الذي اشتهر بميله إلى الأعمار ويشهد السد وقناة الري في نينوى التي تحمل أسمه روعة هذا المنجز الهندسي الخالد.

الحكام الآشوريون كانوا مأخوذين بسحر وروعه الفنون والثقافة في بابل، وفخورين بأن تضم دولتهم هذه المدينة التاريخية العظيمة السابقة لهم في الحكم والمجد. ولكن لم يكن بوسع البابليين التصور والتحمل أن لا تكون بابل مدينه الثقافة العظيمة عاصمة للإمبراطورية، رغم أن الآشوريون فعلوا كل شي لأن تتحد عاصمتهم الجديدة مع العاصمة القديمة في لغة وآله، مشتركة. كما حرص ملوك الآشوريون على الزواج من سيدات بابليات من اجل المزيد من توثيق العرى.

وكان الملوك الآشوريين قد شيدوا عاصمة جديدة حملت اسم دورشاروكين، ويطلق عليها أيضا اسم (خرصباد) لا تقل روعة وعظمة عن بابل. إلا أن وفاة الملك اسرحدون كانت قد جلبت بداية النهاية لوحدة الدولة وكيانها، إذ اندلعت الصراعات بين الإخوة حول مناطق الإمبراطورية، ومن جهة أخرى كان اتساع رقعة الإمبراطورية عاملا مساعدا لهذا التمزق، فعادت الدول الصغيرة إلى البروز في بلاد ما بين النهرين، وكذلك الحروب المحلية وكان ذلك يدور حوالي 660 ق. م .

كان ساردانبال آخر ملك آشوري في بابل وسعياً إلى السلطة والعرش تآمر ضده قائد جيشة الميدي، وحدث ذلك في وقت من السنة كانت فيه مياه نهر

الفرات قد فاضت حتى بلغت إرجاء قصره فساهمت مع المتآمرين في تعجيل سقوطه .

وعندما أدرك الملك ساردانابال عدم جدوى القتال والمقاومة وإراقة الدماء، قـرر الانتحـار مع زوجاته وحاشيته. وقبل ذلك قتل خيوله الأصيلة وكلاب الصيد النـادرة، ثـم سـكب العطـور والمشروبات الكحولية على عرشه وأضرم النار في نفائسه وأعز مـا يملـك، وجلـس بكـل كبريـاء في شرفة قصره المطل على نهر الفرات وحدائقها الغناء، منتظراً أن يتصاعد اللـهب ليجلـب المـوت الذي ارتضاه .

ترى هل كان ساردانبال رجلاً تحجرت فيه عواطفـه ؟... أم تـرى انـه اختـار نهايتـه عـلى هذه الصورة، ليس كملك يفكر حتى أخر لحظه بالسلطة والسـلطان، بـل كإنسـان أختـار نهايـة شاعرية رومانسيه.

هــذه الــرؤى حركــت خيــال الرســام الفــرنسي يــوجين ديلاكــروا (1798–1863) فحولها إلي لوحه شهيرة تحمل اسم (موت ملك) التي يصـفها بعـض النقـاد بأنهـا مـن أجمل أعمال ديلاكروا إلى جانب روائعه الأخرى ومنهـا لوحتـه الرائعـة (الحريـة تقـود الشعب).

وهــذه اللوحــة الرائعــة والتــي هــي بحجــم 395×495، رســمت عــام 1827 بالزيت على قماش الكتان، هي اليوم مـن نفـائس متحـف اللـوفر بـباريس. وهــي تصور الملـك الآشـوري / البـابلي سـاردانبال وهـو يجلـس عـلى عرشـه بكـل كبريـاء

يتطلع بشجاعة ممزوجة بالعطف إلي قتل نسائه وخيوله. انه لمنظر يصور الجمال والنعومة والوحشية في آن واحد .

ساردانبال الإنسان كان قد قرر أن لا يسقط هذا الجمال ضحية للعدوان والوحشية، وكذا نفائسه غنيمة بيد المعتدي، ساردانبال وهو الفارس الشجاع، المحب للسلام والمبغض للحروب، ليس بسبب التخاذل أو الخوف، ولكنها الشجاعة النبيلة أملت الموت حرقاَ محتضناَ اللهب. على هذا النحو أراد ديلاكروا آن يعرض اللحظات الأخيرة من حياة الملك ساردانبال......

الموت محترقاً مع النفائس والجمال .

كان صحفي قد سأل مرة الكاتب المسرحي الشهير جان كوكتو : ماذا تفعل إذا شاهدت دارتك الجميلة بكل ما تضم من كتب رائعة ولوحات الأصيلة التي أهداها لك أصدقاؤك الفنانون، وكذلك تحفك الثمينة، وقد شبت النيران في كل ذلك ؟

فأجاب كوكتو على الفور: إذن احتضن ذلك اللهب الرائع بين ذراعي.

أما الشاعر البريطاني بايرن (اللورد جورج بايرن 1788-1927) وهو مناضل قضى من اجل الحرية في اليونان وهو في شبابه، فأنه اطلع على هذه الدراما ثم شاهد اللوحة الرائعة لديلاكروا، وكتب واحدة من قصائده الرائعة .

هكذا بايرن يتخيل خطاب ساردنبال ..... كلماته الأخيرة المتأخره ! ...

كم أحببت وكم عشقت ....

كم مارست الخيال في حياتي .

لم أدع لحظة واحدة من الحب تفلت من يدي

ولكنه الموت....

أنه ليس غريب عني

أنه أسهل مما نتخيل ونتصور ...

حقا ... أنني لم أدع قطرة دم واحدة تهدر عبثا

ما يملأ منه البحار ...

كسيد، لم افعل ذلك

أن يطبع اسمي مقرون بالموت في كل مكان

كان بوسعي أن افعل كل ضروب الرعب

التي تخلد كذكريات للنصر

ولكني لم افعل ذلك ...

ولست نادم على ذلك ...

فحياتي هي الحب

أكثر نقاء وصفاء

من مياه الأنهار

ولكن عندما يكون أهراق الدماء ضرورياَ

لذلك ....

فأنا فخور بأني لم أضحي بقطرة دم من أجلي ...

من شرايين أبناء آشور

وإذا شاءوا بعد ذلك أن يكرهوني ...

فذلك

لأنني لا احمل في قلبي الكراهية

وإذا ثار بوجهي عصاة، فلأنني لست بطاغيه

كم أنتم رجال سيئون..

لا ترتضون يدا تحمل الصولجان

بل يدا تضرب بالسيف ...

المصادر:

د. عكاشة، ثروت: الفن العراقي القديم بيروت 1974

كونومتل شتات : يوجين ديلاكروا برلين 1974 باللغة الألمانية

مجموعة مؤلفين : تأريخ العالم ج .1 لايبزج 1981 باللغة الألمانية

Dr. Durgham Al Dabak

Begegnungen der Zivilisationen

Gottes ist der Orient!

Gottes ist der Okzident!

Nord und südliches Gelände

Ruht im Frieden seiner Hände.

(Johann Wolfgang von Goethe)

Diese bedeutsamen Verse des großen deutschen Dichters Johann Wolfgang von Goethe sind eine Erklärung dafür, dass die Menschen, wo immer sie auch sesshaft sind, ob im Osten oder im Westen, im Norden oder im Süden, eine Schöpfung eines einzigen Gottes sind, Gläubige an einen einzigen Gott.

Den Quellen der Historiker entnehmen wir, dass die Wurzeln des Ethos eins sind. Das manifestiert sich im ethischen und humanistischen Streben des Menschen zum Guten hin, zu allen Zeiten und an allen Orten. Das Gute ist eine weite Welt, es bietet viele Möglichkeiten und Varianten, im Gegensatz zum Bösen, belches nur zu Dunkelheit, Unrecht und Zerstörung führt.

Wie ein roter Faden zieht sich der Weg der Menschen oder Zusammenarbeit und Freundschaft durch alle Epochen und Zeiten und spiegelt sich in viele Bereiche wider in Handel, in Kultur und in Politik Die Karawanen der Kaufleute aus Mesopotamien, aus Babylon und Assyrien bereisten in vorchristlicher Zeit Mittel- und Zentraleuropa, was durch Ausgrabungen und archäologische Funde hinreichend bewiesen ist. Diese weitläufigen Beziehungen führten zu Handel mit slawischen und baltischen Kaufleuten. In der christlichen Epoche wurden diese Handelsbeziehungen intensiviert. Ihren Höhepunkt jedoch erreichten sie in frühislamischer Zeit,

Anfang des 7. Jahrhunderts. Nun drangen die Karawanen aus verschiedenen Richtungen nach Mittel- und Nordeuropa vor.

Es ist hinlänglich bekannt, dass die in China beginnende Seidenstrasse auf mehreren Wegen Zentralasien durchquert, dann ihren Weg durch russische Gebiete bis hin zum slawischen Raum nimmt, aber auch von Zentralasien durch Persien nach Mesopotamien, weiter nach Syrien und our Mittelmeerküste bis hin nach Anatolien, zum Balkan, nach Griechenland und Zentraleuropa führt.

Sicherlich bildete der Handel den Hauptaspekt, jedoch wurde der kulturelle Austausch nicht vernachlässigt. Dies ist bezeugt durch den griechischen Geschichtsschreiber Herodot, der Ägypten besuchte und in Mesopotamien und Babylon geforscht hatte, ebenso taten es andere Philosophen. Die kulturellen Beziehungen dauerten n an und verfestigten sich. Es gab einen wichtigen Informations- und Wissensaustausch. Vor allem in den vorchristlichen Epochen geht es um die hoch geschätzten Wissenschaften Astrologie und Astronomie. Diese fruchtbaren interkulturellen Beziehungen wurden in den nächsten Jahrhunderten weiter ausgebaut und zeigten neue Horizonte an. Diese langanhaltenden und erfolgreichen Handelsbeziehungen und der gegenseitige kulturelle Austausch gipfelten in der Begegnung zwischen dem Abassitenkalifen Harun al-Raschid und einem Gesandten Karls d. Grossen im Jahre 797 in Bagdad. Diese Begegnung führte zu diplomatischen Beziehungen. So schickte Harun al-Raschid Gesandte mit Geschenken zu Karl d. Grossen nach Aachen Diese politisch überaus wichtigen Begegnungen sollten dazu dienen, eine politische Ost-West-Achse zu bilden, mit allen militärischen und strategischen Aspekten, um das aufstrebende und immer mächtiger werdende Byzanz und die arabische Präsenz in Andalusien in Schranken zu halten. Bagdad und Aachen, die Residenzstädte Harun al-Raschids und Karls d. Grossen, waren bestrebt, eine Vormachtsstellung im Rahmen eines

Ost-West-Dialogs aufzubauen. Politische,militärische, strategische, ökonomische und kulturelle Beziehungen sollten diese beiden großen Mächte charakterisieren.

Die Kreuzzüge vom 11.-13. Jahrhundert stellten zwar eine Katastrophe in der Beziehung zwischen der arabischen, islamischen, europäischen und christlichen Welt dar, sie änderten aber nichts daran, sich auf vielen Gebieten Wissen und Fähigkeiten auszutauschen, hauptsächlich, Produktionsmittel und –Methoden zu entwickeln.

Trotz der Schlachten und Gemetzel gab es auch menschliche Seiten Der deutsche Kaiser Friedrich II (1194-1250) war von der arabischen Kultur und Gelehrsamkeit tief beeindruckt, sodass er die arabische Sprache erlernte und sich mit den Weisen seiner Zeit auf allen Gebieten austauschte. Aufs äußerste verurteilte er den Krieg mit den Arabern und den Moslems, denn er liebte den Frieden, und er war auf eine gute Zusammenarbeit mit den Arabern bedacht.

Der Nahe Osten und Nordafrika sind seit alters her ein Magnet für Handels und Kultur Suchende aus dem Westen. In immer neuen Wellen strömten abendländische Abgesandte und Gelehrte in den Orient. Einen Höhepunkt in dieser Begegnung zwischen Abendland und Morgenland schlug sich in den kulturellen Aktivitäten nieder. Epochen wie die Renaissance, und später die Aufklärung, nahmen großen Einfluss auf den Orient und seine Entwicklung auf verschiedenen Ebenen. Auf zahlreichen Gemälden ist dieser Austausch verewigt worden. Es reisten Forscher, Archäologen, Geografiker und Historiker in den Orient. Sie gründeten die so genannte„Orientalische Bewegung“. Ägypten und der Irak legten den Grundstein für die morgenländische Zivilisation; verstanden sich diese beiden Länder doch als Wiege der Kultur, das blühende Mesopotamien und das fruchtbare Niltal. Zahlreich waren die Entdeckungen und Erforschungen deutscher, englischer und französischer Archäologen. Der Stein von Raschid konnte nun enträtselt werden. Der französische Forscher

Champollion entzifferte die Hieroglyphen und machte uns sumerische und babylonische Inschriften zugänglich Mit diesem Fundus künstlerischer und archäologischer Entdeckungen wurde ein wesentlicher Beitrag our internationalen Kultur geleistet. Die Lösungen dieser Rätsel waren eine Akkumulation für Kultur und Literatur.

Die neue Entwicklung der Transportmittel erleichterte die Mobilität der Armen. Jedoch gab es auch jene, die die Transportmittel- und Waffenindustrie unterhöhlten, um andere Waren auf den Markt zu bringen. Eine Welle von Kolonialzügen drang in den Orient ein und gründete Kolonialsysteme, wodurch die menschlichen Beziehungen zwischen den Völkern und Zivilisationen großen Schaden nahmen. Trotz der Kolonialsysteme nahm der kulturelle Austausch weiterhin seinen Lauf. Maler und Schriftsteller, u.a. der Maler Delacroix , der Romancier Flaubert und die Autorin Agatha Christie bereisten den Orient. Ihre Arbeiten reflektieren die Besonderheiten des dortigen Lebens. Ebenso ließen sich Komponisten wie Verdi und Korsakow in ihren werken vom Orient inspirieren. Der Zauber Bagdads im 8. Jahrhundert inspirierte den russischen Komponisten Korsakow zu seiner Oper „Sheherasade",der italienische Komponist Rossini schuf mit seiner Oper „Der Barbier von Sevilla" ein bekanntes und ein hervorragendes Oeuvre, und setzte damit der Blütezeit des arabischen Andalusiens ein Denkmal. Nicht selten kört man arabische Klänge in europäischer zeitgenössischer Musik, wodurch der Orient für uns immer wieder lebendig wird. Des Weiteren war der orientalische Einfluss auf die europäische Literatur unübersehbar. Die Romane „Märchen aus 1001 Nacht", „Sinbad", „Alibaba und die vierzig Räuber" und „Aladin und die Wunderlampe" sind lediglich die bekanntesten Märchen aus dem Morgenland, die mittlerweile in Europa Pflichtlektüre geworden sind. Das wohl bekannteste deutschsprachige literarische Werk, das

unter orientalischem Einfluss steht, ist Goethes „Der ost-westliche Diwan".

Seit Ende des 19. Jahrhunderts nimmt die sumerische und babylonische Mythenforschung einen breiten Raum ein. Das Gilgamesch-Epos, mit seinen tiefgründigen Bildern und Erkenntnissen, umrahmt alle menschlichen, gesellschaftlichen und politischen Aspekte.

Die mittelalterliche Philosophie italienischer Gelehrter, durch das Zusammenwirken mit andalusischen Philosophen beeinflusst, stand in ihrer Blüte als die arabische Weise Ibn Ruschd die klassischen Werke von Platon und Aristoteles für die abendländische Welt übersetzte. Durch die Übersetzungstätigkeit Ibn Ruschds wurden die Schriften Platons und Aristoteles zu einer wesentlichen und bedeutungsvollen Quelle für späteres philosophisches Gedankengut. Hiervon legt die Universität Peruggia Zeugnis ab. Sie wurde our Wirkungszeit Ibn Ruschds erbaut und fußte auf seine Ideen. Die Philosophie und Lehrtätigkeit dieser Universität war richtungsweisend für das gesamte abendländische Universitätswesen und Kulturverständnis.

Mit meiner Arbeit möchte ich einen Beitrag leisten das chöne und das Gute in der Begegnung zwischen Orient und Okzident hervorzuheben.

Tatsächlich ist die Welt im 21. Jahrhundert klein geworden, ein kultureller Austausch ist umso wichtiger als bisher. Das Zusammenleben auf einem Planeten erfordert gegenseitiges Interesse und Verständnis für kulturelle Identitäten und Errungenschaften anderer Zivilisationen - allerdings auf den Boden von Liebe und Freundschaft, nicht von Widerspruch, Hass, Gewalt und Aggression. Alle, die sich vom inneren und äußeren Druck befreit fühlen, sind eingeladen, das Motto „Zusammentreffen der Zivilisationen" zu bekräftigen.

Der Titel meiner Abhandlung „Zusammentreffen der Zivilisationen" soll Optimismus verbreiten und eine friedfertige Gemeinschaft unter den Völkern prognostizieren. Ich bin mir sehr darüber im klaren, dass sich auch Gegenstimmen erheben werden. Mit meiner vorliegenden Arbeit möchte ich beweisen, dass das Zusammentreffen verschiedener Kulturen Schönheit hervorbringt, wie Gemälde, Musik und Literatur. Das Erhabene der interkulturellen Verschmelzung finden wir in einer humanistischen Gesellschaft ausgedrückt. Viele Völker und Nationen haben gemeinsam an unserer hohen Zivilisationsstufe gearbeitet – vielleicht auch das Volk der Eskimos. Wir haben keine einheitliche Messlatte, um zu bestimmen, wie hoch der Anteil einer jeweiligen Nation an unserem hohen Zivilisationsstandard war. Sonst hat jede Kultur ihren wohlverdienten Platz in der Ehrenliste menschlicher Errungenschaften.

Die schöpferische Zusammenarbeit zwischen den Völkern schafft Liebe und Verbundenheit, sie vertieft die Beziehungen untereinander und trägt zum wesentlichen Erfahrungsaustausch bei. Fanatismus und Extremismus hingegen hinterlassen nur Zerstörungen und Ruinen, denn diese negativen Kräfte erzeugen nur Misstrauen und Hass.

Mit meinem Beitrag möchte ich auf eine begabte Arbeit hinweisen. In dieser Arbeit nimmt ein tapferer und edler (irakischer) babylonischer König teil. Ein französischer Maler hält diese Arbeit in einem Gemälde fest, gibt ihr Stärke, wo es sein muss und reflektiert Prestige und Stolz, wo es nötig ist, und er verleiht dem Gemälde Schönheit und Zartheit, die vor uns in Fülle steht. Nur die Grausamkeit und die Gewalt verdirbt alles Schöne und alles Schöpferische. Des Weiteren lässt ein britischer Dichter den Held dieses Dramas, das ist der babylonische König, in einem Gedicht, für uns und die Geschichte, seine letzte Rede halten. Hier stellt sich die Frage, wie wir dieses historische Andenken und ihre menschliche Bedeutung ohne die Feder des französischen Malers

Delacroix und ohne des englischen Dichters Lord Byron im Gedächtnis hätte bleiben können. Ist es nicht ein eindeutiger Beweis dafür, dass das Zusammentreffen der Zivilisationen, und nicht deren Auseinandersetzungen, für die Menschheit einen großen Fortschritt bedeutet?

Die Pessimisten verkünden düstere Mottos und wollen in uns das Feuer des Hasses und der Feindschaft entzünden. Wie viele herrliche Gemälde müssen dafür brennen! So wäre das berühmte Gemälde „Harun al Raschid trifft einen Gesandten Karls d. Großen an seinem Hof in Bagdad“ und das Gemälde „Der Tod einer Königin“ von Delacroix den Flammen übergeben worden. Wir würden Rossinis Oper „Der Barbier von Sevilla“ nicht mehr hören, und wir würden die hervorragende Komposition „Sheherasade“ von Korsakow und Goethes „Der ost-wesliche Diwan“ verfluchen. Ebenso müssten unsere Kinder die herrlichen Abenteuer von Sinbad und Alibaba vergessen. Wichtige Kenntnisse aus dem Bereich der Chemie, der Physik, der Mathematik und der Astronomie wären für uns heute nicht mehr zugänglich.

Hat dieser Brunnen des Hasses ein Ende?

An die Bewohner des Orients und der Bewohner des Abendlandes möchte ich mich mit den Worten wenden, die der große deutsche Dichter und Denker Johann Wolfgang von Goethe gesprochen hat:

„Gotte ist der Orient!

Gottes ist der Okzident!“

Wir sind alle Brüder der Menschlichkeit auf einem Planeten – und wie klein ist dieser Planet!

Der Fluss der Liebe und Zusammenarbeit fließt; wir müssen keine Hindernisse schaffen. Wir alle müssen daran arbeiten und wirken, ein sauberes Tröpfchen in diesem Fluss zu sein.

Diese Aufgabe scheint schwer, aber sie ist nicht unmöglich – und mit der Teilnahme aller Menschen wird es einfacher, diese Aufgabe zu bewältigen.

Ich hoffe, dass mein Beitrag in diesem wunderbaren Strom eingebettet ist, dem Strom der menschlichen und internationalen Zivilisation, ohne Fanatismus und Extremismus, jedoch mit Liebe und Zusammenarbeit.

Ein Gemälde

und eine Geschichte

Die Stabilität und die Ruhe gewann Mesopotamien nach dem Zerfall des Babylonischen Staates erst wieder, als fünf Jahrhunderte Unruhe, lokalen Kriegen und Kleinstaatenregime vergingen und dies, nachdem es den Assyrern gelang, für sich einen Staat im Norden Iraks mit der Hauptstadt Ninive zu errichten. Sie konnten ihre Herrschaft über das ganze Zweistromland, einschließlich seines alten Zentrums Babylon, ausbreiten. Die Assyrer waren keine Eindringlinge in Mesopotamien. Sie waren am oberen Tigris seit der Frühgeschichte ansässig und hatten ein mächtigeres Reich errichtet, auf dessen Thron Einhundertundsechzehn (116) Könige saßen. Deshalb galt es als das stabilste der Staaten von ihm, einschließlich (der Große Stadt) Babylon, dessen Könige sechsunddreißig zählten.

Im Assyrischen Staat (1700v.u.Z. bis 612v.u.Z.) gedieh Kultur und Kunst, und es entwickelten sich die Errungenschaften ihrer babylonischen Vorfahren weiter. All dies war von der politischen Stabilität begleitet. Sie konnten ihre Herrschaft nach Süden bis zum Arabischen Golf, nach Osten bis Ilam, im Norden bis in die Berge Armeniens und nach Westen bis zum Mittelmeer, Zypern, Ägypten und der arabischen Halbinsel auszudehnen.

Die Könige der Assyrer erlangten Ruhm, wie z.B. die Königin Samuramat, deren Namen Samiramis bekannt wurde. Sie erlangte Ruhm durch ihre weise Politik und genaues Lenken des Staatsapparates sowie durch ihre Neigung our Architektur. Ebenso

war König Sargon, der den Titel „ der mutige Soldat“ trug, für seine erfolgreiche militärische Führung bekannt. Ferner ist König Senharib erwähnenswert.

Die Assyrer waren von der großen Kultur Babylons stark fasziniert und stolz auf den Einschluss dieses historischen Stadtstaates in ihrem Reich. Die Babylonier ertrugen aber selbst nicht die Vorstellung, dass ihre große Hauptstadt und Kultur nicht zum Zentrum des Reiches wurde. Obwohl die Assyrer alles taten, um die neue Hauptstadt Ninive mit der alten Babylons fester zu vereinigen, blieb der Erfolg aus, zumal die Babylonier und Assyrer eine Sprache sprachen und an dem selben Gott glaubten.

Später bauten die Könige Assyriens eine neue Hauptstadt, die sie Dur-Sharokin nannten, jetzt unter dem Namen Khorsabad bekannten. Ihre Könige vermählten sie mit babylonischen Frauen.

Nach dem Tod des Königs Assar-Haddun, des letzten des vereinigten Reiches, begannen die Brüder sich um die Gebiete zu streiten. Andererseits war die enorme Ausdehnung des reiches ein Faktor für dessen zerfall, erneut zu Kleinstaaten im Zweistromland zu kommen und our wiederkehre der lokalen Kriege. Dies geschah um 600 V. u. Z.

Der letzte König Assyriens über Babylon war Sardanapal. Gegen ihn rebellierte sein medeascher Heerführer, der ihn den Thron entriss. Dies geschah in einer Jahreszeit, in der der Euphrat über die Ufer trat, wodurch die Überschwemmung sein Palast erfasste und dessen Sturz beschleunigte. Aber erkannte der König Sardanapal die Ausweglosigkeit des Widerstandes und beschloss den Selbstmord mit seinen Frauen und Bediensteten. Vorher tötete er seine reinrassigen Pferde, Jagdhunde und verbrannte sein Palast mit den gesamten Einrichtungen. Er begoss seine Gemächer mit Duftstoffen und alkoholischen Getränken und wartete stolz auf dem Balkon seines Palastes, an der Fluss- und Gartenseite, bis die Flammen hinaufstiegen und seinen Tod besiegelten.

War Sardanapal ein Mann versteinerter Gefühle oder wählte er sein Ende, um ein poetisch romantischer Mensch und kein König, der an Macht und Reichtum denkt, zu sein?

Diese Darstellung entflammte die Phantasie des französischen Malers Eugene Delacroix (1798-1863). Er fasste sie in einem berühmten Gemälde zusammen, das er „ Tod des Sardanapal“ nannte und das die Kritiker als eines der schönsten Gemälde Delacroix's, verglichen mit seinem berühmten Gemälde „ Die Freiheit führt das Volk“ beschrieben.

Dieses wunderbare Gemälde im Format 395x495 cm, das im Jahre 1827 in Öl auf Leinwand gemalt wurde, befindet sich im Louvre in Paris. Es stellt den König Sardanapal dar, der stolz auf seinem Thron sitzt und dabei das Gemetzel seiner Pferde und schönen Frauen betrachtet. es ist eine Szene, in der Schönheit, Grausamkeit und Feinheit vereint sind.

Der Mensch Sardanapal war entschlossen, dass die Schönheit nicht zum Opfer der Aggression und Gewalt sowie seine Kostbarkeiten Beute für die Aggressoren werden.

Sardanapal, der starke Ritter, den Frieden liebend und Krieg hassend nicht aus Müdigkeit, sondern auf menschlichem Großmut. Auf solche Weise wollte Delacroix die Szene Sardanapal brennend im Angesicht des Todes malen.

Einst wurde der französische Theaterautor Jean Cocteau gefragt: „Was würden sie tun, wenn Sie Ihre schöne Villa mit den wertvollen Büchern und originalen Gemälde die Ihre Freunde von den Malern als Geschenk erhielten sowie alle Ihre Kostbarkeiten, die Sie besitzen, verbrennen sehen“ Cocteau antwortete schlagfertig „Dann nehme ich die Flammen in meine Arme“.

Der englische Dichter Byron hörte das romantische Drama „der Tod“, sah das Gemälde Delacroix und schrieb darüber ein Gedicht.

Sardapal sagt in der Tragödie Byrons:

„Wie viel liebte ich

Wie viel Phantasie brauche ich zum Leben

Kein Moment der schöpferischen Liebe ließ sich mir entgleiten.

Der Tod aber, ist mir nicht fremd.

Er ist leichter vorzustellen als unsere Vorstellung es zu tun vermag.

Tatsächlich, kein Tropfen Blut habe ich umsonst vergossen.

Als Herrscher konnte ich nicht vergießen, dass als weiter Ozean fließen würde.

Und mein Name wird an jedem Ort den Tod berühren.

Ich könnte alle Schläge der Furcht geben, um sie als Siegeserinnerung zu verewigen.

Aber ich tat es nicht und bereute es nicht.

Mein Leben ist Liebe, klarer als das Wasser des Flusses.

Wenn aber das Schicksal das Blut vergießt erfordert,

so bin ich stolz, kein Bluttropfen mir zum Opfer vergossen zu haben, aus den Adern der Söhne Assyriens.

Ich vergeudete keine Karat Gold aus den unermesslichen Schätzen Ninives.

Wenn sie mich danach hassen werden

so, nur weil ich keinen Hass in meinem Herzen trage,

sollten sie in meinem Angesicht rebellieren, so tyrannisiere ich nicht.

Wie schlechte Männer seid ihr, die keine Hand mit Zepter akzeptieren, Sondern eine Hand, die mit dem Schwert schlägt.“

Quellen:

1) Dr. Th. Akasha: Die antike Kunst Iraks, Beirut 1974

2) Autorenkollektiv: Weltgeschichte, Teil 1, Leipzig 1981.

3) 2) Kuno Mittelstadt: Eugene Delacroix, Berlin 197

ثالثاً: الشرق في عيون الغرب (1)

ليس من السهل رصد أولى العلاقات بين الشرق والغرب، فالبشر مطبوع على التجول والتنقل، وفي ذلك ينسج علاقته، الإنسانية قبل كل شيء، ثم الاقتصادية والثقافية، وأخيراً، وأخيراً يؤطرها في أعلى مراحل هذه العلاقات رقياً، ضمن علاقات سياسية. وقد تأخذ في مراحلها المتقدمة، نمط معاهدات واتفاقيات كثمرة لعلاقات دبلوماسية يتوصل فيها مثلوا الأطراف إلى تحقيق المصالح بالوسائل السلمية.

ومن المؤكد أن تلك العلاقات كانت قد ابتدأت في فجر التاريخ قبل العصور الميلادية بزمن بعيد. إلا أنه من المعلوم أن الشرق كان قد سبق الغرب على صعيد الحياة الجمعية بتشييد أولى التجمعات والمدن، فقد بدأت هذه العملية في وادي الرافدين (4 آلاف سنة ق.م) على يد السومريين، وفي أزمنة متقاربة في وادي النيل (2850 ق.م) شيدت أولى المدن في التاريخ المعروف وتم اتحاد بعض المدن القريبة من بعضها بما أطلق عليه دول المدن city states والتي اشتهرت في التاريخ بهذا الاسم بوصفها أولى التجمعات البشرية التي أقامت دولا على أساس القانون. وأسست مجالس تشريعية (مجلس الشباب ومجلس الشيوخ) ونظما سياسية انطوت في جوهر الأمر على تحالف بين سلطة المعبد وسلطة الملك (القصر)، وهذه الخطوة الكبيرة تمثل في فجر التاريخ فتحا حضاريا هائلا. وكانت المدن تشتمل على أبنية فخمة كالمعابد والقصور الملكية والمدارس. ثم أعقبتها مرحلة اتحدت فيها دول المدن، أطلق عليها مرحلة عصر السلالات **Dynasty states** ، تشكلت بعدها إمبراطوريات كبيرة: الأكدية 2325 ق.م ،

البابلية الأولى 2000 ق.م، الآشورية 1800 ق.م بابل الثانية 626 - 537 ق.م.

لم تكن تلك التطورات سوى استجابة للتراكم في التطور التاريخي للتجمع الإنساني القائم على تطور أساليب وأدوات الإنتاج، وتطور فهم الإنسان لمحيطه ثم توصله إلى حل مشكلاته السياسية والاقتصادية، مما قاد كمحصلة إلى نظريات السياسة والحكم كذلك حققت إنجازات رائعة على أصعدة الثقافة، القانون، الآداب والعلوم.

وعندما شيد الإغريق أولى مدنهم (البوليسات) 600 - 480 ق.م، كانت بلاد الرافدين قد تعرفت على نظام المدارس في تعميم العلوم والمعارف وبناء السدود وقنوات وأنظمة ري متقدمة (قناة سنحاريب المعلقة في نينوى) ورفع المياه من الأنهار وبناء القصور الباذخة والقلاع والمعابد العملاقة (الزقورات في العراق- الأهرام في مصر)، وقد ازدهرت الزراعة بسبب أنظمة الري المتقدمة ووفرة المياه وتراكم التجربة، وكذلك تربية الماشية. كما شهدت المدن افتتاح ورش لحل مشاكل الحياة اليومية وتوفير أدوات الإنتاج. وكان استخلاص المعادن من الطبيعة: الذهب، النحاس، الحديد، قد وفر إمكانية صناعة الأسلحة وأدوات الزراعة وكذلك صناعة الأقمشة من الأصواف والكتان. كما كان شيد الإنسان أيضا في وادي الرافدين المراصد الفلكية ووضع جداول حركة النجوم وأشهرها كان في مدينة بابل ذات السمعة العالمية آنذاك. وكانت هناك مكتبات ضخمة منها مكتبة الملك الآشوري الشهيرة التي احتوت على آلاف الأعمال العلمية والفنية والأدبية. ثم توج هذا التقدم الحضاري بأبجدية أوغاريت التي اقتبس منها الإغريق أحرف الكتابة، وغيرها كثير من المنجزات الثقافية

والعلمية. وكانت تلك المنجزات هي التي جذبت طلاب العلم والفلسفة والرحالة ومؤرخين مثل هيرودوت إلى بابل، مركز العلم والثقافة.

ومع نشاط الحركة التجارية وانتقال السلع والبضائع، كان من البديهي أن يصاحب ذلك انتقال الأفراد الأفكار. ولدينا الكثير من المصادر التي تشير إلى مثل هذه النشاطات، وبالطبع فإن رحلة هيرودوت وكتابته عنها أهمها وأكثرها دقة، ولكن هناك أيضا مصادر تشير إلى الرحلات التجارية، ومنها البحرية التي وصلت إلى بحر العرب الذي أطلق عليه اسم البحر الأريتيري، وفلاسفة أغريق ذهبوا إلى بابل وتعرفوا على الأنشطة العلمية والفلسفية فيها.

فرحلة هيرودوت التي استغرقت بضع سنين إلى العراق ومصر وفينيقيا عام 484 ق.م عاد بعدها إلى بلاده ووضع مؤلفات عن مشاهداته في بلاد الشرق التي كانت بلاد حكمة ونور، كما شهدت تلك المرحلة رحلات بحرية، حيث كانت السلع والبضائع والأفكار تتحرك دون أن تحدها حدود. وكان التجار يتقنون إدارة مصالحهم على أساس المقايضة التي كانت سائدة بدلا من النقود في آليات وجدت طريقها في التعامل، وقد وجدت آثار تجار من الشرق وبلاد الرافدين في شرق أوربا، بل وحتى في تخوم بحر البلطيق، مما يدل على حجم مدهش لتبادل تجاري واسع النطاق شمل ربما حتى البلدان الإسكندنافية.

ولكن لابد من الإشارة إلى أن تلك الحركة من التبادل التجاري، الثقافي والعلمي شهدت تناميا متزايدا منذ حملات الإسكندر الكبير في زحفه على بلدان الشرق إذ جاء الغرب إلى الشرق بجيوشه، فأنهى الإسكندر الحكم البابلي والفرعوني وأقام نظاما عرف بإمبراطورية الإسكندر. فالقادم المحتل يحاول دائما

أن يفرض أنماط الحياة السائدة في البلاد التي أتى منها، وكذلك فلسفة الإدارة والحكم والمجال الثقافي بالطبع. ومن جملة ما شملته الثقافة في معطيات ذلك العصر، طراز العمارة والفنون والموسيقى والمسرح، وإلى حد ما الأطعمة والملابس، والاقتباسات من كلتا الحضارتين تأثرت بالموروث المتجذر في تلك المجتمعات القديمة، وكذلك بالطقس والمزاج والمستوى الذهني وغير ذلك من المعطيات.

أطلق المؤرخون والباحثون على هذا الامتداد والتفاعل الثقافي والحضاري تسمية المرحلة الهيلينية نسبة إلى الدولة الإغريقية الهيلينية. الإغريق جاءوا إلى بلاد كانت متقدمة عليهم بأشواط بعيدة في حيازة المعارف والثقافة والفنون. وكان سقوط أنظمة الحكم المحلية نتيجة لشيخوخة الإمبراطوريات الآشورية والبابلية وتظافر عوامل ذاتية وموضوعية عجلت في نهايتها.

الإغريق والإسكندر الكبير كانوا أول من أدرك هذه الحقائق فطرحوا فكرة تفاعل الحضارتين الشرقية والهيلينية. ومن البديهي أن الحضارة الشرقية كانت تتركز في وادي الرافدين ووادي النيل، وبالفعل فقد ظهرت تأثيرات الحضارة الهيلينية على ملامح وسمات تدركها عين الفاحص، ولكن الإغريق نقلوا بدورهم منجزات حضارية و معمارية من مصر والعراق وبلاد الشام منها فقرات هامة ومؤشرات في فن عمارة الأعمدة وتيجانها والأقواس و العقود وصناعة الأثاث والمؤثرات الطوطمية، وكان ذلك على الرغم من أنه كان حصيلة لاحتلال وسيطرة جيوش، إلا أن التفاعلات الحضارية كانت تدور بصورة مباشرة وغير مباشرة نتيجة لهذا اللقاء القريب، بل التماس المباشر بين حضارة الشرق والإغريق.

بعد وفاة الإسكندر الكبير وتقاسم إمبراطوريته الواسعة بين قادته: سلوقس في الشرق، بطليموس في مصر، أنتيغونس في أوربا وتنازع القادة فيما بينهم أدي إلى ما يسمى بدول الديادوشين Diadochen ، دول خلفاء الإسكندر. حيث كان نجم الإمبراطورية الرومانية يبزغ ويتصاعد إلى قوة عظمى، ما لبث أن سقطت مواقع الإغريق تدريجيا واحتلتها بعد أن كانت قد احتلت بلاد الإغريق نفسها، وبذلك انتقل الموقع القيادي في الغرب إلى روما وانتهت صفحة الحضارة الهيلينية في المشرق وضعف إشعاعها بعد أن أصبحت تلك الإمبراطورية العظيمة مجرد مقاطعة رومانية.

جاء المحتلون ومعهم منجزاتهم التي كانت نتيجة لامتزاج معطياتهم مع الإرث الإغريقي ليتفاعل كل ذلك مع معطيات ومنجزات الشرق. وكان الرومان حتى ذلك الوقت وثنيين فيما كانت شعوب المنطقة قد تعرفت على المسيحية وكانت الأديرة والكنائس نقاط إشعاع ثقافية مهمة، وكان لقاء الحضارات والثقافات التي تمور بها بلاد الشرق مع الرومان تفاعلا مهما: العربية، المسيحية، الفارسية، الهندية التي تأثرت وأثرت في بعضها البعض، وقد استطاعت هذه الحضارات الحفاظ على جوهرها بنسب متفاوتة، ولكن هذا التفاعل قد أينعت ثماره، بل أثمرت.

ومن المؤشرات على ذلك، تلقي الغرب المسيحية من الشرق، حيث مضى دعاة المسيحية الأوائل في القرون الميلادية الأولى إلى اليونان وإيطاليا هربا من اضطهاد اليهود بعد صلب السيد المسيح، الذين كانوا قد أصبحوا أعوانا للمحتلين الرومان. وقد تمكن دعاة المسيحية من ترسيخ أسس الديانة المسيحية

في اليونان وإيطاليا برغم الاضطهاد الذي لاقوه. وكانت المسيحية تحمل عبق الشرق، وما أن لبثت أن أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية 350 م وكان الغرب في حاجة إلى حكمة الشرق وأصالته. وفي غضون عملية التفاعل العميقة هذه، كانت حضارة الشرق تكتسب ألوانا جديدة لاسيما في العمارة والمسرح والقوانين الرومانية و القوانين التجارية لتضيف إلى التشريع القانوني الشرقي القديم الذي يعود بجذوره إلى بابل وحمورابي العظيم.

في 610 م وببزوغ فجر الإسلام، بدأت مرحلة تاريخية جديدة وفرت الشروط الموضوعية لانعطاف هائل في تاريخ العرب والمنطقة بأجمعها. فالإسلام إلى جانب التوحيد وإمكانية التوجه إلى الخالق دون وساطة من كهنة المعابد الذين مثلوا طبقة طفيلية في المجتمعات، كان يمثل نوعا من الفلسفة الإستكمالية، أي أن الحاضر جيد ولكنه يصبح أفضل بسعي الإنسان. الإسلام كان زاخرا بقواعد وقيم وقوانين اجتماعية وسياسية واقتصادية، ومضى الإسلام يشع حضارة وقوة، شرقا وغربا. وبعد أقل من 20 عام على بزوغ فجره كانت الإرادة العربية الإسلامية قد أنهت الوجود الأجنبي في المشرق المتمثل بالإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، وأضحت الحضارتين الهيلينية والرومانية روافد تصب في المجرى الحضاري العام، لكن دون أن تغيره جوهريا.

المصادر:

1- Autorenkellektiv: Gesschichte der Araber Teil 1، Berlin 1975

2- Autorenkollektive: Weltgeschichte، Teil 1، Leipzig 1981

3- Brentjes، Bernhard: Vom Stamm zum Staat، Leipzig 1983

4- Eisele، Petra: Babylon، Berlin

رابعاً: الشرق في عيون الغرب (2)

ليس بوسع أحد أن يجزم بصفة مطلقة، متى جاء الشرقيين، عرباً كانوا أو مسلمين أو غيرهم إلى أوربا وبأي وسائل ومن أي طرق. فبين أيدينا دلائل ومصادر موثوقة تشير إلى أن تلك الصلات والعلاقات كانت قد ابتدأت منذ أزمنة غابرة بعيدة، ولكن لدينا ما يجعلنا نؤكد أن تلك الصلات كانت منتظمة لقرون عديدة قبل الميلاد، فقد وجدت آثار مؤكدة لتجار من شبه الجزيرة العربية في مناطق بحر إيجة، آسيا الصغرى، بلاد الإغريق والبلقان (شرقي أوروبا) آثاراً لتجار من شبه الجزيرة العربية في جزيرة ديلوس Delos . كما أن كاتبان من اليونان القديمة هما: أريستوفانس Aristo phanes وأوريبيدس Euripides ذكرا في أعمال لهما، أنباء عن تجار من بلاد سبأ (في شبه الجزيرة العربية)، كانوا قد وصلوا إلى تلك الأرجاء، وقاموا بفعاليات تجارية هناك. وكان ذلك قد حدث في القرن الخامس قبل الميلاد.

وإذا كان تعقب تلك الصلات كمن يلاحق ظله،عملاً يقارب المستحيل، ويتطلب جهوداً ومساحات أوسع مما يوفره مجال بحثنا هذا، فأننا سوف نركز على اثنتين من نقاط التماس والاتصال المهمة والتي كان لهما نتائج وآثار مهمة وان تركيزنا على هاتين النقطتين ليس إلا لسببين رئيسيين:

الأول: أن تلك الاتصالات استغرقت مراحل طويلة(نسبياً). الأندلس: سبعة قرون وجزيرة صقلية: ثلاثة قرون تقريباً من الوجود المباشر وقروناً من التماس غير المباشر.

الثاني: الأهمية البالغة للنتائج والآثار الثقافية والعلمية والسياسية الهامة، التي نجمت عن هذا التماس.

ومن المهم في هذا المجال التأكيد على القول، أن التماس كان ينطوي على إشعاع ثقافي وحضاري هام. وأعني هنا: نقطتي التماس: الأندلس وصقلية.

- **الأندلس:**

كان الرومان قد بسطوا هيمنتهم على شبه الجزيرة الأيبرية (أسبانيا والبرتغال اليوم) عام 134 قبل الميلاد، ثم زحفت قبائل البرابرة عبر البحر المتوسط من شمال أفريقيا في أوائل القرن الخامس الميلادي. وفي أوائل هذا القرن (الخامس) أرغمت قبائل اللان، قبائل الوندال، أرغمتها على الجلاء من شبه الجزيرة الأيبرية، التي تعزلها عن فرنسا سلسلة جبال البيرنيه المنيعة Pyreanen، ثم تأثر الغوط الغربيين بعد دخولهم المسيحية بالمذهب الأيوسي. وفي عام 587 تركوا هذا المذهب ومالوا إلى الكاثوليكية.

ولكن الأحداث مضت دامية في المجتمع الأيبري، فالصراعات الاجتماعية والمذهبية كانت تدور بعنف مدمر. ويقَيم البروما، الأستاذ المعاصر في جامعة مدريد أحداث تلك الحقبة قائلاَ:

" في غضون السنوات الأخيرة، كانت البلاد، أيبريا الغوطية، تجتاز فترة من الفوضى والانحطاط والفاقة. والانحطاط الاجتماعي والتعسف طبقي وإهمال للأعمال الزراعية. أمة تضيف الخلافات الدينية والاضطهاد والتغريبات والمصادرات والتقلبات مستمرة في الجهاز السياسي من متاعبها، فتضعها على شفا الحرب الأهلية: تلك كانت العوامل الطبيعية للأحداث اللاحقة ". ومصداقاَ

لما ذهب إليه البروفيسور البروما، فقد كان المجتمع الأيبري لا يعرف إلا طبقتان اثنان فقط:

ـ أقليه من النبلاء ورجال الكنيسة وكبار الموظفين.

ـ أغلبية من الإقنان .

كان أمراء الإقطاع يسومون الرعية سوء العذاب والاستغلال، كما كان هناك تنافس وصراعات بين قادة الكنيسة، واضطهاد وإرهاب يعاني منه اليهود. وفيما كانت أيبريا تشهد هذه الأحداث والاضطرابات، كان الشمال الإفريقي يتقدم ويزدهر ويحقق المنجزات السياسية والاجتماعية، والثقافية بوجه خاص .

كانت أيبريا تحت حكم الغوط منذ قرنين فقط. منذ القرن الخامس، وكانت هذه الأجواء تخلق مناخاً فريداً من نوعه، فقد أستقر رأي عدد من زعماء الغوط ، منهم يوليان، وكان حاكماً لإحدى الولايات والذي قام بمراسلة القائد العربي في شمال أفريقيا، موسى بن نصير وقدم إليه الدعاة والسفن لاجتياز المضيق والنزول على البر الأيبري.

ولم يرغم العرب المسلمون بعد أن استقروا في شبه الجزيرة الأيبرية السكان على الدخول في الإسلام، بل على العكس، فقد أصبح من غير المسلمين، وزراء ومستشارين وقادة إداريين وتداخلت عائلات مسلمة ومسيحية بالزواج. وقد فعل ذلك ملوك العرب والمسلمين.

بيد أن لوجود العرب والمسلمين في الأندلس كان له أبعاده الثقافية والفنية والاقتصادية بدرجة رئيسية، فقد نقلوا إلى الأندلس الكثير من أصناف المزروعات والأشجار، وكذلك صناعة الورق (وكان العرب قد نقلوه من الصين)، والنسيج والصناعات الجلدية. وما زالت اللغة الفرنسية تضم مصطلح Corodonnerie، إشارة إلى صناعة الأحذية في قرطبة.

وعلى صعيد الثقافة، كانت الصلات مفتوحة على كافة الاتجاهات. وإذا كان رصدها جميعاً تفوق مهمة يحثنا هذا، لكن يجدر الإشارة بصفة خاصة إلى الأعداد الكبيرة من العلماء الأوربيين الذين كانوا في القرون الوسطى قد جاءوا لدراسة وتعلم العربية مثل : آدلارد فون باث Adelard von Bath المتوفى عام 1180 وميخائيل سكوت Michal Scott المتوفى عام 1235 ، وكان هؤلاء قد جاءؤا للدراسة في جامعات الأندلس. كما كانت هناك مدرسة للترجمة مختصة بنقل مختلف العلوم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر وكان يديرها المترجم دومنيكو لوديسالفو Domingo loudisalvo .

وكانت مكانة الفكر والفلسفة، والعلوم بصفة عامة، كبيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية في الأندلس، فكانت مكتبة عبد الرحمن الثالث خليفة الأندلس، تضم 400،000 ألف مجلد وكانت فهارسها تقع في 44 مجلد تشمل مختلف العلوم. أما الحياة الأدبية فقد كانت ذروة من السمو في نقل الصورة وتقنياتها.

أما على صعيد الفلسفة، فقد امتدت أهمية علماء الفلسفة والسياسة والاجتماع والتأريخ، إلى ما هو أبعد من الأندلس المغرب والمشرق العربي، إلى

أوروبا والعالم بأسره علماء ومفكرين من أمثال: أبن رشد وأبن خلدون والطرطوشي وأبـن الأزرق وعلماء في الطب وعلم الأدوية (الصيدلة) مازالت أبحاثهم تثير الاهتمام والدراسة في الجامعـات العالمية.

ففد اعتـبرت عـلى سـبيل المثـال، فلسـفة أبـن رشـد هامـة للغايـة في إنضـاج الظـروف والمقدمات لعصر النهضة والتنوير أقتبس منها الأوربيون الكثير مـن أجـل الـرد عـلى أطروحـات السكولاستيون (تأسست السكولاسـتية Scholatism في القـرن الحـادي عشر للملائمـة بـين الـدين والفلسفة) واستعان بها فلاسفة عصر النهضة من أجـل الـرد عـلى السكولاسـتيين لا سـيما أفكـار الراهب الفيلسوف توما الأكويني Thomas Aquinie 1274 - 1225.

وقد أسس العلـماء والفلاسـفة الايطـاليون الرشـديون في ظـروف عصر النهضـة جامعـة بادوفا Paduva في إطار النزاع بين الأرسطوطاليسيين التي كان أبن رشد أفضل شارح ومقدم لهـا، وبين الافلاطونيين الذين قاد تجمعهم العالم اليوناني الأصل بليتون Plethon (المتوفى عام 1490).

وأسس الأفلاطونيون مدرسة في مدينة إيطالية أخـرى وكـان لهـذا الصراع الفلسـفي آثـره الإيجابية على التطور العام للفلسفة، وصفة خاصة للفكر الفلسفي السـياسي. ولكـن إلى جانـب فلسفة أبن رشد ويطلقون عليه باللاتينية Averroes، كان هناك الكثير من المنجـزات في مجـالات العلوم الصرفة، كالطب وعلم الدواء والرياضيات. ويمكـن القـول بموضـوعية تامـة، أن مسـاهمة الثقافة والعلوم العربية، والمنجزات الحضارية بصفة عامه التي كانت تشع من هاتـان البؤرتـان، الأنـدلس وصـقلية وفرنسـا إلى حـد مـا، بـالطبع إلى جانـب وسـائط أخـرى، الـدور العـام في

عصر النهضة، واستمرت مصادر الطب والصيدلة العربية أساسية في الجامعات الأوربية حتى عصر النهضة أو بعدها.

- **صقلية:**

كانت جزيرة صقلية تابعة للدولة البيزنطية، وكانت السفن العربية تتخذ منها محطة في إطار فعالياتها التجارية، وكان الأغالبة، وهم أسرة عربية أسسها إبراهيم بن الغالب كان عاملاً للدولة العباسية على مصر ومقاطعات شمال أفريقيا ثم أسس أمارة تتمتع بالكثير من الحرية والاستقلال عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية وأسس أسطولاً حربياً وتجارياً ضخماً من أجل الدفاع والحفاظ على الأمارة / الدولة ومصالحها أعتبر أحد القوى الرئيسية في البحر المتوسط وكانت صقلية المنطلق للكثير من الهجمات التي كانت توجه صوب إمارته وتهديداً لتجارة الأمارة.

لهذه الأسباب قام الأغالبة باحتلال باليرمو (عاصمة صقلية)، وفي عام 843 ميسينا، وفي عام 878 سيراكوز، وفي عام 902 تورمينا. وتقع جميع هذه المدن في جزيرة صقليه . وحتى منتصف القرن الحادي عشر استمرت الجزيرة تحت إدارة الأغالبة العرب وتؤكد المصادر الأوربية، أن هذا الوجود العربي كان مهماً في نقل الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا.

ثم أن الأغالبة توجهوا نحو أراض في شبه جزيرة أبنينو (إيطاليا)، ففي عام 840 احتلوا تارت وفي عام 814 مدينة باري، وفي أعوام 846 – 849 هاجم الجيش العربي روما وحاصرها لكن دون تحقيق النجاح. ثم نظم البيزنطيون

حملات مضادة بقيادة الملك لودفيغ الثاني، وفي عام 880 تمكن البيزنطيون من إخراج العـرب مـن إيطاليا .

ولكن هذا التماس وبقدر كان أنطوي الحروب ومشاهد القتال، كان ينطوي على لمحـات ثقافية وحضارية كما أسلفنا، فمن هنا، من صقلية تعرف الأوربيون لأول مرة على خارطة العـالم التي كان قد أعدها الجغرافي العربي الإدريسي وكذلك على الكثير من فنون الصـناعات الزجاجيـة والأصناف الفاخرة من الأقمشة. ومنجزات ثقافية وحضارية عديدة.

وقد أستمر العرب ذو حظوة ونفوذ علمـي وثقـافي في بلاطـات الملـوك والقيـاصرة، بعـد نهاية حكمهم في صقلية، فكانوا معلمين ومستشارين وأفضل الجنود. فقد كـان القـيصر الألمـاني فريدريك الثاني (توفي عام 1250)، يجيد اللغة العربية كأحد أبنائها .

مصادر البحث :

* أدهم، علي : صقر قريش بيروت / 1974

* الدباغ، د. ضرغام عبد اللـه الدباغ: الفكر والنظام السياسي في عهـود الخلافـة العربيـة الإسلامية / مخطوطة

* تشردوم، البروما: حرية العقيـدة في أسـبانيا الإسـلامية، مقـال في مجلـة آفـاق عربيـة ، بغداد ـ العدد1 1979

* كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة الحديثة القاهرة / 1957

* Autorenkollektiv : Geschichte der Araber Teil 1 Leipzig 1971.

خامساً: بعثة دبلوماسية بين بغداد وآخن



مبعوثي كارل الكبير في بلاط هارون الرشيد ببغداد

يوليوس كيوكيرت 1864 Julius Köckert

بعثة دبلوماسية بين بغداد وآخن

ازدهرت الدولة العربية الإسلامية ونظام الخلافة في العصر العباسي الوسيط، ابتداء منذ عهد الخليفة هارون الرشيد الذي مثل عصره فترة التألق، ليس للخلافة العباسية فحسب، بل وللحضارة العربية الإسلامية بأسرها، ومن مؤشرات هذا الازدهار، رخاء اقتصادي، وتعميم للثقافة، ساهم في ذلك توصل العرب إلى صناعة الورق، التي نقلت تقنياتها من الصين، فعمت صناعته في المراكز العربية، ومن ثم ازدهرت الثقافة بصفة عامة.

وكان الأمير هرون الرشيد (قبل أن يستلم الخلافة) قد قاد حملة عسكرية كبيرة على الإمبراطورية البيزنطية(779 ـ 781) التي ما انفكت تناكف الدولة العربي الإسلامية وتهاجم مدن الثغور، وتلحق الأذى والأضرار بالمواطنين وممتلكاتهم. فلما تقدم الأمير الرشيد في أراضي الدولة البيزنطية، ملحقاً بهم الهزائم، حتى بلغ مدينة القسطنطينية(استانبول الحالية)، ذات الطبيعة الجغرافية المعقدة، والأسوار الحصينة المنيعة. فحاصرها، فعرضت الملكة أيرني Irene ملكة البيزنطيين الصلح.

قبل الأمير هارون الرشيد الصلح ولكن بشروط وضعها بنفسه، شروط صعبة ومرهقة سياسيا ومالياً. وكانت كما يلي:

1 . أن تدفع الملكة أيرني أتاوة سنوية قدرها 90 ألف و70 ألف دينار على دفعتين، في نيسان وحزيران.

2 . أن يحمل رسول من ايرنا الهدايا إلى الخليفة المهدي.

3 . تسليم كافة الأسرى المسلمين.

4 . أن تقدم الملكة أيرني الأرزاق على الجيوش الإسلامية لتسهيل عودتهم إلى بلادهم.

5 . مدة الصلح ثلاث سنوات.

أما في البحر، فقد تقاسمت الدولة العربيـة الإسـلامية الهيمنـة عـلى البحـر المتوسـط، إذ استولت البحرية العربية على الكثير من جزر البحر المتوسـط: قـبرص، كريـت، رودوس، صـقلية، سردينيا. وقد ظلت بعض هذه الجزر مئات من السنين تحت السيادة العربية الإسلامية.

وجدنا من خلال البحث والتتبع للآثار الثقافية على الحضارة الأوربيـة كـم مـن الصـعب حصر، هذه التأثيرات والبواعث الثقافية على كافة الأصـعدة. وإذا كـان بعضـها معـروف للقـراء والمثقفين العرب، إلا أن كماً غير يسير منها مجهول حتى للمثقفين، بحكـم انتشـارها في متـاحف ومكتبات عديدة متناثرة.

وإذا كان جمع هذه المواد لوحـدها تمثـل مهمـة جليلـة، نتطلـع بعـين الرجـاء أن تتـولى مؤسسات عربية في عمل منتظم في تولي هذه المسؤولية الجبارة. وقد أخـذنا عـلى عاتقنـا (قـدر الإمكان بالطبع) التقاط مثـل هـذه الآثـار وتعميمهـا، سـواء كانـت لوحـات وصـور، أو أبحـاث وتقارير وتقديمها للقرار بهدف تعميم الفائدة، ولكن هذا المجهود كالذي يسبح في بحر مـتلاطم الأمواج !

فهنا على سبيل المثال لوحتان نادرتان: أحداهـما لرسام ألمـاني، يتمتـع بشـهرة في وطنــه ألمانيــا، وهــو يوليــوس كيــوكيرت، عثرنــا عــلى هــذه اللوحــة النــادرة

التي تمثل الخليفة هرون الرشيد جالساً على كرسيه في بلاطه يستقبل رسل الملك كارك الكبير، واللوحة هي أحدى الموجودات الرائعة لمتحف مكسمليان بميونيخ في ألمانيا الإتحادية. ويصف عرش الرشيد بالفخامة والسجاد الفاخر وروائح المسك والعنبر، وبالأطعمة الشهية.

كما وجدنا صدفة، لوحة نادرة أخرى، للأسف بدون أسم مبدعه، تمثل رسل هارون الرشيد وقد وصلوا بلاط الملك كارل الكبير في مدينة آخن (قرب مدينة كولن بوسط ألمانيا) ومعهم هدايا أخرى عدا الفيل، مثل البسط، والزجاجيات، والعطور والسيوف والأقمشة، وكل هذه كانت صناعات عربية فاخرة، وكان ملوك أوربا يعتزون بحيازتها.

ومن بين هدايا الرشيد للملك كارل الكبير: إسطرلاب شهير عد في حينه من نفائس الاختراعات وقد وجدنا صورة نادرة لهذا الأسطرلاب.

تشير بعض المصادر أن الوفود والسفارات المتبادلة، تضمنت محادثات سياسية. فقد كان للطرفان خصوم مشتركين، متمثلاً بالدولة البيزنطية، وتقاسم النفوذ في البحر المتوسط الذي كان منذ القرون قبل الميلادية، يعد بحر التجارة بإمتياز. بيد أننا لم نعثر على ما يعزز هذه النبأ أو ينفيه، على أن المصادر الألمانية ترجح وجودها، لكن الأمر يبقى دون إيضاحات كافية.

أخيراً وجدنا بحثاً أعده باحثان ألمانيان تضم تفاصيل عن رحلة كبعوثي الملك كارل إلى بغداد والعودة، يمكن أن تمنح فكرة تزيد الصورة وضوحاً للأحوال السياسية وحالة الطرق ومفردات سياسية، وشيء من طبائع البشر !

البحث من عمل : كلاوس كريفة / فرانك بول، نشرت في نشرة بريد الشرق : صحيفة للثقافة الشرقية. عدد خاص: أب/ أوغسطس/.2003

في العام 797 بعث الملك كارل الكبير(شارلمان) ملك الفرانكيين(الفرنج)، المبعوثين إلى هرون الرشيد في بلاطه ببغداد بهدف تحسن العلاقات. عرف منهم ثلاثة: لانتفريد Lantfried، وزيجزمزند،Sigsmund كمبعوثان، واليهودي أسحاق Issak كدليل، والذي عمل مترجماً بنفس الوقت.

ولا تتوفر معلومات كثيرة عن رحلة الذهاب. ففي شمال إيطاليا التقى الركب الفرنكي مع الغراف جبهارت فون تريفيزوGrafen gebhard von Treviso الذي قرر بنفس الوقت أرسال مبعوث منه إلى القدس، وهناك، في القدس افترقت الطرق، فيما واصل لانتفريد وزيجزموند وإسحاق طريقهم صوب بغداد.واستغرقت السفرة والإقامة في عاصمة الرشيد عاماً كاملاً، تبادل فيها الطرفان الهدايا والمفاوضات السياسية قفل الفرنكيون عائدين إلى وطنهم.

ومن ضمن الهدايا التي أرسلها الخليفة الرشيد إلى كارل الكبير، فيل (أبيض ؟) ، وحسب المصادر الأوربية، فإن هذا الفيل الأبيض كانت رغبة الملك كارل الكبير.

ولكن رحلة العودة لم تكن حسنة الطالع، إذ توفي كل مـن لانتفريـد، وزيجزمونـد خـلال الرحلة، فيما تعين أن يقوم إسحاق بخدمـة الفيـل وسـائر عنـاصر الرحلـة ومواصـلة الرحلـة ولم ينجح بذلك إلا بشق الأنفس: وفي 13 تموز يوليو 802 وصـل الركـب ومعهـم الفيـل إلى عاصـمة كارل الكبير، آخن.

وكان إيصال فيل من بغداد إلى آخن يبدو عمـلاً ينطـوي عـلى المجازفـة والمغـامرة لـيس فقط من النظرة الأولى، بل هو كذلك حقاً. وكان الطريق عبر كليكيـا، ثـم الأناضـول ، منهـا عـبر القسطنطينية(أستامبول الحالية)، ومنها إلى البلقان إلى وسط أوربا الطريـق الأكـثر قبـولاً، وكـان هذا الخط في العصور القديمة (قبل الميلادية والعهود الميلادية الأولى)، الأكثر أسـتخداماً للوصـول إلى العاصمة الرومانية، وكذلك من قبل الحجاج الذين كانوا يقصدون القدس من الرومان أو من الجرمان، وعبور الممر المائي البسفور، الضيق يقلص مـن حجـم مخـاطر الرحلـة البحريـة. ولكـن إسحاق لم يختر هذا الطريق. لماذا ...؟

تعرضت الخارطة السياسية لمنطقة حوض البحر البيض المتوسط لتغيرات مهمة، والسـفر عبر القسطنطينية، كـان يعنـي العبـور في أراضي كانـت في ذلـك التـاريخ تحـت سـيادة عاصـمة الإمبراطورية البيزنطية السياسية والعسكرية، والدخول في تسـع منـاطق تابعـة لسـيادة البلغـار والصرب. ولنفس الأسباب والظروف كانت تخضع لها الطرق البحرية من اللاذقية عـلى إيطاليـا، والتـي تجنبهـا مبعوثـوا كـارل الكبـير في رحلـة الـذهاب، والسـبب: تجنـب الأسـاطيل البحريـة البيزنطية التي كانت تسيطر على منطقة شرقي المتوسط.

أنعطف إسحاق في رحلته صوب الغرب، وسار دائماً بمحاذاة البحر المتوسط، سائراً في المناطق التي تحت سلطان الخليفة العباسي الرشيد. في طرق كانت ممهدة منذ العهد الروماني، من ضمن شبكة الطرق التي جرى أنشاؤها بعناية التي تمت في الولاية التي كانت بعهدة أنطوني أوغستي Antonini Augusti، احد عمال القيصر كاراكلا 211 Cracalla(ـ 217 ق.م) .

ولذلك كانت طريق الرحلة البديلة طويلة: بين مصر وشمال أفريقيا، التي كانت فيما مضى ولاية أفريقيا التابعة للدولة الرومانية (دولة تونس الحالية)، لم تكن هناك سوى أمكانية وجود طريق ضيق يمتد بين البحر المتوسط والصحراء، والذي أتخذه إسحاق، وهو الطريق الأكثر أماناً. تخبرنا مصادر الدولة الفرنكية، أن المبعوثين كانوا في حماية ومساعد الأمير إبراهيم، عميد أسرة الأغالبة، الذي كان الخليفة هارون الرشيد قد أرسله لإدارة وقيادة ولاية أفريقيا عام 800م . حيث قدم لهم بواجب الضيافة والإكرام. كان قد أتخذ من مدينة القيروان التي تأسست في القرن السابع الميلادي(شيدها القائد عقبة بن نافع) مقراً لإمارته، التي لم تكن واقعة ضمن شبكة الطرق الرومية، بل على مسافة جانبية منها، على طريق مهم للقوافل التجارية بين الميناء تونس ومدينة المهدية، من جهة، وأواسط وجنوب الجزائر من جهة أخرى، وليس من المعروف بدقة فيما إذا كان إسحاق قد أقام في القيروان أو أنه توجه دون إبطاء إلى الساحل، إلى أحد الموانئ، من المرجح أن يكون تونس.

ومن المحتمل أن يكون إسحاق قد انتظرهما حتى وجد سفينة تقله إلى البر الأوربي المقابل. والطريق الآخر كان يمتد على ساحل شمال أفريقيا، بمحاذاة البحر المتوسط، ومن ثم عبر شبه الجزيرة الإيبرية من أجل العودة إلى بلاد

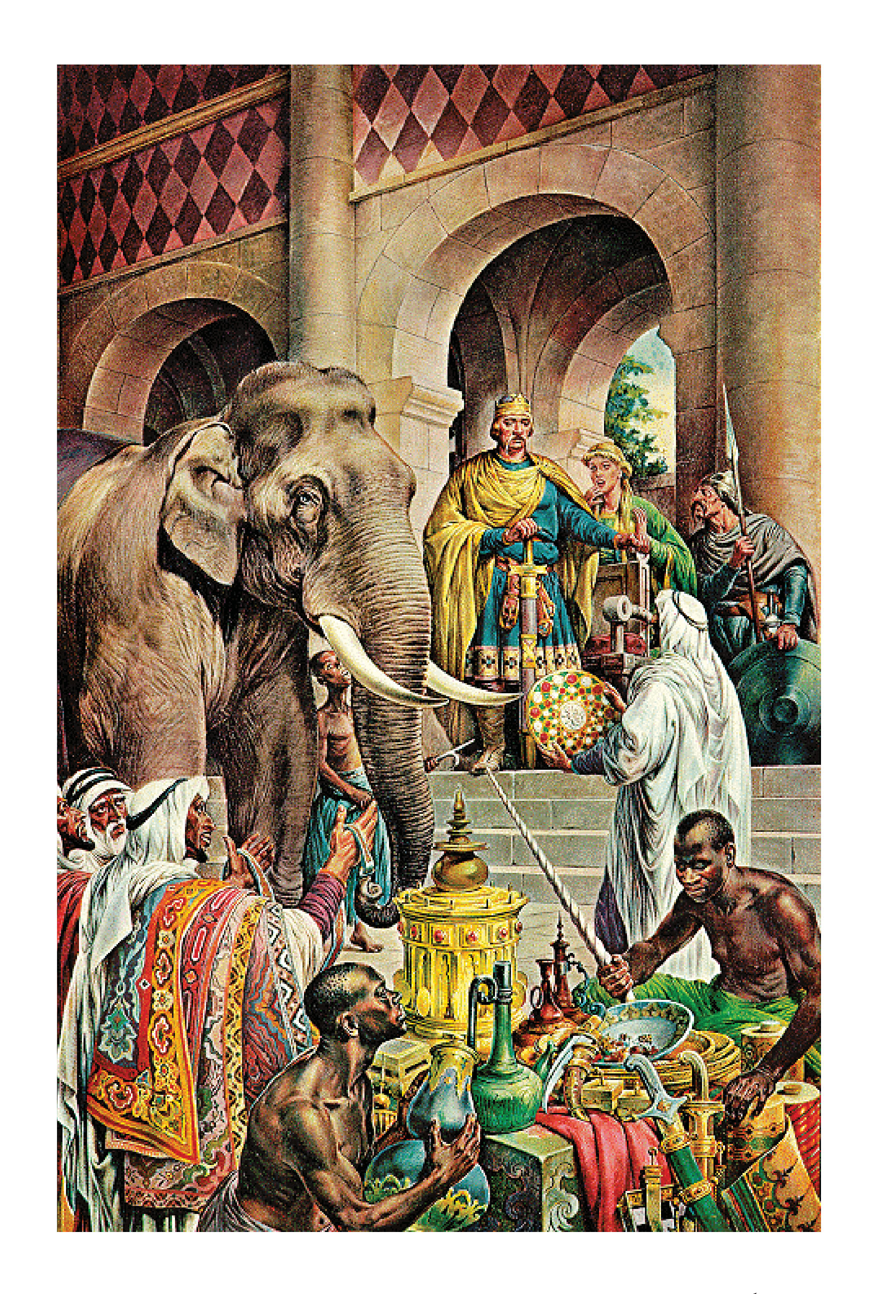
الإمبراطورية الفرانكية، كان سيعني رحلة ودورة طويلة، ولكن لأسباب سياسية لم يكن حكيماً. ففي المغرب كانت الأسر: الرستمية والأدريسية قد كونت مراكز نفوذ قوية هناك، حيث لم تعد خاضعة لسلطان الخليفة، وفي شبه الجزيرة كانت الأسرة الأموية هناك، التي كان أبو العباس جد الخليفة هارون الرشيد قد تمكن من إسقاطها عام 750، وعزلها عن السلطة، وفي مناطقهم تلك حيث ليس للركب العائد أن يتلقى أي من أشكال الدعم أو الحماية.

لم يستطع إسحاق تدبر سفينة تأخذه مع الفيل إلى البر الإيطالي، إذ كان إبراهيم بن الأغلب في تلك المرحلة بالذات في حرب مع البيزنطيين على صقلية، فلم يسعه أو لم يكن يرغب بمساعدته، فالأمر يتعلق بعدة أطنان من الوزن التي كان الفيل يمثلها، وهو ما لم تكن العديد من السفن التي كانت تمخر في البحر المتوسط تقبل به.

فقط، وجدت المشكلة طريقها إلى الحل، عندما كان هناك أسطول بحري تابع للملك كارل الكبير، وبواسطة أحد سفنه الكبيرة، تم نقل الفيل من بر شمال أفريقيا إلى برتوفينا Portoveere ليس بعيداً عن موقع سبيتزيا الحالية La Spezia شرقي ليجورين Ligurien وبذلك كان الحل لمشكلة عبور البحر المتوسط. واجتازت السفينة المنطقة البحرية الممتدة بين جزيرتي صقلية وسردينيا اللتان كانتا خاضعتان للبيزنطيين، ولكنهم مروا بسلام بين سفن قراصنة ولصوص بحر التي كانت نشطة في المنطقة غرب البحر المتوسط بين مصب نهر الرون وساحل بروفنزا، وتحيلها إلى منطقة غير آمنة.

ومن بروفنزا، مضت قافلة المبعوثين في أكتوبر من عام 801 ، من المرجح عبر جنوة الإيطالية وبافيا Pavia صوب فرساي من قضاء الشتاء في القصر الملكي هناك. وفي الربيع، كانت أمامه مضائق سلسلة جبال الألب، أختار الركب طريق بيرنهارد لعبور الألب مواصلاً سيره صوب الغرب. ولكنه كان عليه أن يختار أفضل الطرق لاجتياز مضائق الألب الشرقية، مضيق مالويا Maloja-Pass ويوليرJulier ، كانت ممكنة للبعثة لأنها تخترق منطقة بإدارة القس فون كور Bischof von Chur ، وتم لهم ذلك رغم وجود مشكلات بسبب وعورة المنطقة.

ما تبقى من الرحلة إلى آخن لم تكن تنطوي على مشكلات. ففي تلك العصور المبكرة لم تكن هناك سوى القليل من الطرق الصالحة، ولكن الرحلة تواصلت إما بمحاذاة بحيرة جنيف، أو عبر آفنشس، والمحطة القادمة كانت لانجرس، ثم ابتدأت الخيارات الكثيرة عبر تول، ميتز، وترير، أو خيار سلوك طريق عبر مدين القساوسة المهمة رايمز، ولكنهم تركوا طريق ميتز وترير واختاروا طريقا جانبياً عبر أردن وأيفل، بطريق مباشر إلى مدينة كولن Köln ، واعتبارا من تلك المرحلة كان قد أصبح الوصول إلى آخن هيناً.



سادساً : مقدمة موسوعة تاريخ العرب (سبعة أجزاء)

فريق من المؤلفين برئاسة البروفسور دكتور لوثر راتمان

ابتدأ العرب في العقـدين الأخـيرين بكتابـة صـفحات جديـدة في تـاريخهم الحـديث، إذ احتلوا مكانتهم في تيار النضال العريض لحركة التحرر العالمية، فحطموا بذلك حلقات العبوديـة، وانظموا إلى المسيرة العالمية ضـد الاسـتعمار، تلـك التـي كانـت ثـورة أكتـوبر الاشـتراكية عاملهـا الرئيسي، ومنها ابتدأت مرحلة تلاحم القوى المعاديـة للاسـتعمار والهادفـة إلى تحريـر الشـعوب ومن اجل الاشتراكية. فكان النضال العربي يتصاعد من أجل التحـرر وتقريـر المصـير، كـما كانـت تدور في مساحة الأقطار العربية البالغة 5،12 مليون كلم مربع حركة نضـال تهـدف إلى تحقيـق الاستقلال والسيادة، وساهمت بنشاط في النضال العـالمي، كـما طرحـت حركـة التحـرر العربيـة بقوة في السياسة الدولية.

وتتمسك الأقطار العربية المتحررة بحقوقها الغير القابلة للإهمال أو التغافل، التي يحاول الاسـتعمار عرقلتهـا وإعاقـة الجهـود مـن أجـل إيجـاد حلـول للمشـكلات عـن طريـق التطـور الاجتماعي والتقدم، وفي نضالها ضـد الإمبرياليـة واعتـداءاتها وفي الحفـاظ عـلى السـلام العـالمي بالتعاون مع معسكر التحرر العريض.

إن العرب ينظرون ويتطلعون بكبرياء وفخر إلى ماضيهم ذي التقاليد الثريـة. وهـم منـذ دخولهم في تاريخ العـالم في القـرن الأول قبـل المـيلاد، ينتمـون إلى تلـك الشـعوب التـي قـدمت مساهمات عظيمة لا تنسى من أجـل التقـدم الاجتماعـي للبشريـة، وكـان الانتصـار الـذي قـاده محمد بن عبد اللـه (ص) وأكده الإسلام في القرن السـابع، المقدمـة لتوحيـد جميـع القبائـل في شبه الجزيرة العربية في دولة واحدة، مثلت مكة والمدينة(يثرب) مركزين مهمين لها.

ومن ذلك الحين فصاعداً، فإن أتباع محمد وخلفاؤه تمكنوا في موجات من الفتوحات، من توسيع سلطانهم وسيادتهم حتى أواسط القرن الثامن من ضفاف نهر الهندوس في الشرق حتى شبه جزيرة بيرنيه (أسبانيا) في الغرب ومن البحر الأسود في الشمال حتى الحافة الشمالية للصحاري في الجنوب، حيث نهضت واحدة من أعظم الإمبراطوريات العالمية في تاريخ البشرية.

وبالنسبة للعلماء التقدميين، فليس الكم الوافر من الانتصارات في سوح المعارك، هو ما يستدعي الانتباه وإنما الخدمة التي قدمها العرب من أجل التقدم الاجتماعي للبشرية. وعندما وصلت الحضارة والمدنية العربية الإسلامية إلى ذروتها، استطاعت أن تتوصل إلى نظام ري متعدد القنوات مثلت أعلى درجات التطور في الإنتاج الزراعي، وكذلك في التجارة، والمصنوعات اليدوية، في الورش ولاسيما في صناعة السجاد، والنسيج الراقي العالي التطور، وفي أنتاج الجلود التي كانت لها أهميتها في العالم بأسره، كما أن أساتذة عرب ترجموا أعمالاً باللغات اليونانية، اللاتينية، الهندية، فضاعفوا بذلك من حجم العلوم والمعارف التي كانت بحوزتهم في تطور مضاعف للعلوم، كما وضعوا حجر الأساس للكثير من الميادين الرئيسية في العلوم، ودونوا ما كان معروفاً لديهم في تلك الأزمنة في أعمال وكتب موسوعية، وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية، فانتشرت الحروف العربية مع الإسلام إلى شعوب وبلدان غير عربية، وحاز فن الشعر العربي على درة الأدب العالمي وتؤشر اليوم جوامع ومساجد في دمشق والقدس وقرطبة كشواهد لامعة لفن المعمار العربي.

وباختصار، فأن الثقافة في العصور الوسطى للدولة العربية قد أثرت بشدة على التطور الثقافي لأوربا كما في آسيا وأفريقيا، وكونت أرثاً ثقافياً حيوياً لتلك الشعوب، وهي مؤثرة في الهياكل التقليدية لحياتهم حتى وقتنا الحاضر.

لقد سقطت الإمبراطورية العربية العالمية، وتجزأت إلى عدد من الأقطار، ومارس أعداؤها الضغوط لكي تمنعها من النهوض. فمن موجة الحملات المغولية في القرن الثالث عشر، إلى عصر السيادة التركية ـ العثمانية في الأقطار العربية منذ بداية القرن السادس عشر، كانت تعني أيضاً نهاية التطور المعتمد على الذات، كما تعطلت المسيرة التقدمية الناجحة للثقافة والإرادة العربية ومثلت السبب الأول في الجمود الذي أصاب العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

ولكن العرب لم يكفوا مطلقاً عن الثورة بوجه هذه الأقدار، إذ لم يكف نضالهم من أجل الحرية، رغم أن المغول كانوا يبدون وكأن لا شيء قادر على إيقافهم وقهرهم، وكذلك فرسان الحروب الصليبية وقوات المرتزقة الأسبان، أو جنود السلطان التركي. فقد خاضوا النضال ضد القوى الرجعية والإقطاعية في بلدهم، كما لم يشأ العرب القبول بالاضطهاد تحت شعارات دينية، فمن الممكن أن يكون تحت هذا الشعار أو ذاك اضطهاد مستتر لأقليات أو لفلاحين مضطهدين أو للكسبة وللعمال الفقراء.

وبرز في صفوف الفكر الإسلامي مفكرون عقلانيون(المذهب العقلاني في الفلسفة Rationalism ـ المترجم) وفلاسفة ومدارس فكرية كالمعتزلة مثلاً، والفارابي، كما أن الحركات التقدمية في تاريخ العرب والإسلام كانت نشيطة.

وكانت المرحلة الجديدة القاسية في نضال العرب من أجل الحرية قد بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر، عندما طرحت القوى الاستعمارية نفسها كوريثة للدول العثمانية، (الرجل المريض)، عندما كانت جيوش نابليون قد غزت مصر وسوريا غداة تحول القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، وبعد ذلك بسنوات قليلة، هددت السفن الحربية البريطانية سواحل البحر الأحمر والخليج العربي. وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الشمال الأفريقي بأسره قد سقط في قبضة الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإيطالي، بينما كان المشرق العربي قد غدا مسرحاً للعمليات الحربية للقوى الإمبريالية في مسعى تقسيم جديد للعالم.

لقد كان الوضع الجديد الذي تمكن فيه المستعمرون والإمبرياليون من ترسيخ أقدامهم، كان دافعاً من أجل ثورة العرب ضد الأعداء الجدد الأقوياء سواء في الجزائر بقيادة القائد العظيم عبد القادر الجزائري، أو في الجبال الوعرة للمغرب(مراكش) الريف، أو في جبل العرب(سورية)، أو على حافة الصحراء الليبية، أو في المدن العربية الكبيرة حيث يعم الفقر، أو على ضفاف النيل بقيادة أحمد عرابي. ففي كل مكان هبت فيه الجماهير العربية بالنضال من أجل الحرية مقدمين ضحايا يصعب تقديرها في نضال غير متكافئ مع عدو ذي تسليح متفوق. ولم تكن كل هذه لتثني العرب عن نضالهم، بل وأن كل ذلك مثل في النهاية الطريق إلى النجاح. ونقطة الانطلاق لحركة التحرر العربية المعادية للاستعمار التي نالت دعماً مهماً بعد ثورة أكتوبر 1917 مستفيدة من التناقض والصراع بين الاشتراكية والإمبريالية. ومن المنطقي أيضاً، أن النضالات

الداخلية التي كانت تشهدها الأقطار العربية، أدخل كل ذلك العرب في الخمسينات والستينات من هذا القرن في مرحلة جديدة.

وقد تميزت هذه المرحلة ببروز أقطار عربية ذات توجهات تقدمية حققت مكتسبات هامة لحركة التحرر العربية التي بدأت نمطاً جديداً من النضال من أجل التحرر من الإمبريالية والتي هي علامة هامة في أتساع النضال العالمي ضمن العملية الثورية برمتها، وفي ذلك تقدم الشعوب العربية التي كانت في الماضي كنزاً للأفكار الإنسانية، واليوم يجددون مساهمتهم من أجل التقدم الاجتماعي، وقد اكتسبوا تجارب جديدة ضموها إلى تجارب الماضي.

عملاقة هي المهمات التي تواجهها الأقطار العربية المتحررة، والطريق أمامها طويل وملئ بالمخاطر، وإن محاولات الإمبريالية من خلال تكاثفها وزجها لأدوات جديدو بالإضافة إلى القديمة، وأساليب توسع جديدة مستخدمة القوة العسكرية المتفوقة للرجعية لتمارسها ضد الأقطار العربية التي تمكنت فعلاً من تحقيق نجاحات على كافة الأصعدة الاجتماعية، وهي تعمل من أجل إزاحة القوة التقدمية العربية واستخدام الأقطار العربية في مخططاتها التوسعية العدوانية.

إن مؤلفي هذا الكتاب، علماء، أساتذة، مدرسين مختصين في شؤون الأقطار العربية في قسم أفريقيا والشرق الأوسط بجامعة لايبزج، وهم إذ يقدمون هذا العمل "تاريخ العرب" باللغة الألمانية لأول مرة انطلاقا من المادية التاريخية، وكمساهمة من المختصين بالشؤون العربية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، مساهمة في المجهود الفكري للعلماء العرب في مجال العلوم الاجتماعية، من أجل

تحقيق صورة دقيقة عـن التـاريخ، وإنهـم يهـدون هـذا الكتـاب إلى الشـعب العـربي الشـجاع، المجتهد، المحب للسـلام، وإلى العبقريـة العربيـة وإلى المناضـلين مـن أجـل تحريـر بلادهـم مـن الغرباء القادمين من الخارج، هذا الشعب الذي يبني اليوم حياة جديدة.

إن مجموعة المؤلفين يعدون ذلك أمنية خاصة، أن يساهم هذا العمل في إنـارة الطريـق أما التواصل التاريخي للتطور الاجتماعي في نضال العرب ضد المغتصـبين، وأن يكتسـب نضـالهم من أجل التقدم الحضاري والثقافي أفضل الفرص للنجاح.

نأمل أن يجد هذا العمل الاهتمام من الجمهور وكذلك النقد.

لوثر راتمان

لايبزج / شباط ـ فبراير / 1971

"هذه مقدمة موسوعة تاريخ العرب بأجزاء سبعة من عمل فريق المـؤلفين مـن أسـاتذة جامعة لايبزج بألمانيا، قمنا بترجمة أجزاءه الأربعة الأولى "

سابعاً : ملاحظات في دراسة القرآن

كان المستشرق الألماني ماكس هينيك Max Henning قد قام بترجمة القرآن الكريم، في ألمانيا وصفت بأنها ممتازة للقرأن الكريم، ومنذ ذلك الحين فإن هذه الترجمة قد اعتمدت على نطاق واسع في ألمانيا (شرقاً وغرباً) بوصفها أفضل ترجمة للقرآن. كما أن السيد هينيك قد قام بترجمات في مجالات بحث أخرى أطلعنا عليها، منها ترجمته الممتازة لدستور المدينة(الصحيفة) الذي قدمه الرسول (ص) لشعب يثرب (المدينة)غداة هجرته إليها.

وقد حصلنا على هذه الطبعة الحديثة المترجمة للقرآن، وهي من ترجمة السيد هينيك أيضاً، الصادرة عن دار نشر ريكلام / شتوتغارت Reclam Stuttgart بألمانيا الاتحادية. وقد تصدرت هذه الطبعة، تحت عنوان(مقدمة وملاحظات)، مداخلة مهمة للبروفسورة الألمانية المعروفة على نطاق واسع آنا ماريا شيميل AnneMaria Schimmel، وهي ملاحظات مهمة تستحق الترجمة وتقديمها للقراء.

وجدير بالذكر أن الطبعة الأولى لهذه الترجمة صدرت في مطلع القرن العشرين، ربما في العشرينات. ولكن هناك الكثير من المراجع الهامة بعضها قد نشر في القرن السادس عشر أو السابع عشر وبلغات عديدة، ألمانية وإنكليزية وفرنسية.

" القرآن "

يحتوي القرآن، الذي نشره محمد ودعا إليه، النواة التي أصبحت الأساس لعموم الحياة الإسلامية، يحتوي على قواعد للالتزامات الدينية حتى المسائل الفنية، وقد عبر غوتة (يوهان فولفجانج غوتة) حول الشكل والأسلوب الذي جاء به القرآن:

"صارم، قوي، ذو رهبة، وفي بعض مقاطعه عظيم الصدق والاستقامة" وفي جميع صفحاته يثير اهتمام علماء وأساتذة حتى من خارج العالم الإسلامي، وقراء يقرأونه ويتعلمون ويتعرفون على هذا الكتاب، ولهؤلاء نقدم هذه الطبعة من ترجمة ماكس هينيك التي تعد حتى اليوم أفضل ترجمة ألمانية، وفي ذلك خدمة للقراء.

وهناك مقدمة وملاحظات للبروفسورة آنا ماريا شيميل في مداخلة مهمة عن أهمية القرآن.

* دار النشر / فيليب ريكلام

شتوتغارت

المقدمة

من عام لعام تتكاثف الصلات والعلاقات بين أوربا والبلدان الإسلامية التـي تمتـد كحـزام من غرب أفريقيا حتى الفلبين، وتتزايد كذلك بصفة أسطورية أعداد الذين يتعرفون على الثقافة الإسلامية، عدا الرحلات والاتصالات الشخصية. وتتنامى لدى العديد من هـؤلاء الرغبـة في إلقـاء نظرة على أصل هذه الثقافة، والقرآن الذي وفر الأساس للحياة والفكر لدى المسلمين منذ 1300 سنة وحتى اليوم.

لم تكن هناك في الأزمنة الأخيرة ترجمة ميسورة، موثوقة علمياً للقرآن، لـذلك قـررت دار النشر (ريكلام) إعادة طبع وإصدار الترجمة المعروفة والموثوقة لماكس هينيـك، التـي ظهـرت في عالم المكتبات منذ ستين عاماً، وهـو صـاحب الـترجمات الجـديرة بـالاحترام والثقـة والتـي تلقـى مكانة خاصة لدى علماء وخبراء الإسلاميات، منهم البروفسور حميد اللـه (أسـتامبول ـ بـاريس) الذي قيَم هذه الترجمة بوصفها أفضل ترجمة مطبوعة للقرآن، لذلك أعيد طبـع هـذه الترجمـة حرفياً دون أحداث أي تغيرات.

وقد جرت مراجعة الملاحظات والمصطلحات بدقة، كما جـرى أحيانـاً إكمالهـا وتصـحيحها، أو تحسينها، ولكن ذلك لم يكن إلا بقصد تقديم أفضـل ترجمـة للقـارئ الألمـاني. ومـن أجـل إيضـاح أي تأثير للقرآن حتى يومنا هذا على حياة المسلمين، وإبراز أي فاعلية عميقة كامنة في القرآن منذ القـرن السابع وحتى اليوم على جميـع الأصـعدة، للقـراء الـذين لهـم إطـلاع عـلى تفسـير القـرآن أو هـؤلاء

الذين على تماس مع قضايا ودراسات تخصصية. ووضعنا قائمة بالأعمال المهمة من بين المراجع الكثيرة جداً.

إن المراجع ودار النشر يعتقدان، بأنه ومن خلال هذه الطبعة الجديدة، إنما يلبيان الحاجة ويقدمان المساهمة من أجل فهم أفضل في محادثاتنا مع المسلمين.

البروفسورة

أنا ماريا شيميل

ملاحظات البروفسورة آنا ماريا شيميل

في عـام 1955 سـأل بعـض طـلاب كليـة الشريعـة في أنقـرة أسـتاذهم في مـادة قـراءة القرآن(المقصود على الأرجح الترتيـل التجويـد ـ المـترجم) في الإنشـاد الجميـل لفضـاً عنـد تـلاوة القرآن، مدعين أن طريقة لفضه لا تماثل قواعد اللغة العربية.

"ولكن القرآن ليس عربياً " قال بفزع " بل أنه كلام الـلـه، كيف تريدون أن تقارنوا ذلـك مع قواعد اللغة العربية ؟ ".

هذا المشهد الصغير، اظهر الإيمان الفوق طبيعي للقرآن، والعصمة المطلقة التي ما زالـت حتى اليوم من البديهيات لكل مسلم، الذي ربما كان يفهم النصوص المقدسة أو أنـه قـادر عـلى سماع الكلمات أو قراءتها، وأن يرسم كتابة كلماتها.

ترى كم متناسبة هذه الشهادة مع هذا النفوذ ..؟ محمد المكي المنحدر من قبيلة قريش، الذي نما وترعرع ضمن أجواء نظام العبادة الوثنيـة المتعـددة، كـان يبحـث عـن ديانة راقية في تأملاته في غار (كهف) قرب مكة يدعى غـار حـراء، نهـض بإسـناد ودعـم وثقة من زوجته وأكتسب القناعة ليكون نذيراً ومحذراً مـن انحـراف أبنـاء جلدتـه مـن الضلال والكفر.

هكذا ابتـدأ بالـدعوة إلى مـا كـان يسـتمع إليـه مـن صـوت الملائكـة(الـروح المعتمدة): كلمات بالحساب المهـدد للـذين يقضـون حيـاتهم في الطـيش والمجـون،

يخبرهم بالأهوال الفظيعة المنتظرة في الآخرة، وسوف لن تنقذهم سوى رحمة الله للذين يهتدون ويعودون لله. وقد تحولت لهجة الإنذار مع مضي الوقت، إلى أكثر قوة في وصف الله ذو القدرة والسلطة، الذي يهب الحياة من خلال كلمة (كن) فقط فيكون، هو الذي يحي الصحاري بالمطر وهو الذي يحي الموتى بعد موتهم، وسخر من تجار مكة الذين كانت لهم مكانتهم ومهابتهم، بأن عبادتهم للأصنام والأوثان إنما هي كفر وخطيئة كبيرة، وإن الله الذي هو الخالق والحاكم لا يمكن أن يكون إلا واحداً، وهذا الله الواحد وهذه القدرات ترد في القرآن في عدد كبير من الأوصاف، فهو الأول والأخير، الذي يسمع ويرى، هو المحب وهو القاهر، وهو الرحمن وهو الرحيم، والمسلمون يعدون هذه الصفات في تسعة وتسعين أسماً وهي أسماء الله الحسنى.

وفي السنوات الأخيرة من نشاط محمد في مكة، في سنه الأربعين(حوالي 610 م) بدأ بالدعوة، وذلك بالإشارة إلى دعوات الأنبياء الذين سبقوه، والذين مثله، لم يصدقه أبناء بلادهم ولم يعترفوا بدعوتهم، فأبتلعتهم الأرض. ومن هؤلاء الأنبياء، يبتدأ بإبراهيم ثم إسماعيل الذي أصبح أب العرب، وتكمن أهمية كبيرة في تطور الإيمان لمحمد، لهؤلاء المؤمنين الذين لا يهمهم الشمس والقمر ويسلمون قيادهم له ولكنهم يتأثرون بحقيقة إيمانية، بما هي أقدم من اليهودية والمسيحية، بأب البشرية الأول: آدم الذي تنحني له الملائكة، لأن الله علمه الأسماء، وبذلك أعطاه السلطة على الأشياء، وهو بحسب التعاليم القرآنية التي لا تعرف الخطيئة الموروثة، وقد نصب الله خليفة على الأرض، والذين سيأتون من بعده سيسرون على الصراط المستقيم ويستمتعون بطيبات العالم، ثم يعيدون كل شيء إلى سيد الكل.

وفي قصص القرآن هناك أيضاً نوح وإدريس وموسى، الرجل الذي تحادث مع الرب، ثم يوسف الذي طالما كانت هيئته مادة للشعراء والمتصوفين بوصفه آية للحسن والجمال الإلهي، والصابر أيوب، داؤد، سليمان، وآخرون، إلى المسيح أبن السيدة العذراء مريم، الحي الباقي وهو آخر الأنبياء قبل محمد.

وعندما فقد محمد عام 619 زوجته المخلصة (خديجة)، ثم عمه الذي كان يوفر له الحماية من أعدائه في مكة، وغدا موقفه حرجاً. وبعد مفاوضات مع سكان بلدة يثرب التي تقع شمال مكة، هاجر الرسول إليها بعد أن كان أنصاره قد سبقوه إليها، وقد حدث ذلك عام 622م. ومنذ ذلك الحين أطلق عليها أسم المدينة، وأصبحت مقراً للنبي، وبعد هجرته إلى المدينة أستمر بالدعوة وظهرت قدراته بصورة أوفر، وكذلك شخصيته التشريعية، وفي غضون ذلك كان محمد قد أصبح زعيم جماعة (عصبة) وسياسياً وواضع قوانين.

ومما نشر فيما بعد، نتعرف على نضالات المسلمين ضد أعدائهم المكيين، انتصاراتهم وهزائمهم. والهدنة(الحديبية)، ثم العودة السعيدة بعودة النبي المنتصرة إلى مدينته مكة عام 630م والنزاع مع اليهود في المدينة والواحات القريبة منها، وكذلك المواقف المحرجة التي واجهت النبي الذي تزوج بعد وفاة خديجة عدداً من النساء، لذلك فقد دار الحديث كثيراً عن قضايا وأحكام الزواج والطلاق.

وبحسب اعتقاد محمد، وما ورد في القرآن، هناك أخبار الأنبياء في الكتب: موسى في التوراة، وداؤد في المزامير، والمسيح في الإنجيل، وما تعلمت شعوبهم منهم، فإن العرب قد تلقوا قبل ذلك في لغتهم، لذلك فإن القرآن أرسل في ليلة

القدر من شهر رمضان الذي هو الشهر التاسع من السنة القمرية. وقد أصبح هذا الشهر مقدساً وشهر احتفالات بوصفه شهد حدثاً فريداً (نزول القرآن ـ سورة القدر).

ولم يكن النزول في بداياته ينطوي على تطور، بيد أن الرؤى توالت فيما بعد، وهي تنطوي على الحكمة الإلهية، ومكتوبة بلغة قومه، وما عليه الآن سوى مواصلة إعلانها والدعوة إليها. ونزول الوحي كان بالنسبة له أعجوبة، وعندما طالبه المكيون يأتيان المعجزات كما فعل الأنبياء من قبله، أشار إليهم بالآيات القرآنية كمعجزات، هي تلك الكلمات التي لا يمكن لأي فرد (هكذا كما في القرآن) أن يأتي بمثلها أو ما يشابهها.

محمد (هكذا يؤكد القرآن) ليس بشاعر، والوحي لم يكن مكتوباً على طريقة العروض أو القوافي التي كانت متطورة حتى في تلك الأيام، قبل الإسلام، كأنماط شعرية، بل بأسلوب الشعر المنثور وبجمل قصيرة كما يستخدمها العرافين في جميع الأزمنة، ثم لاحقاً أصبحت الجمل أطول، والنصوص حول يوم القيامة أصبحت أقل وروداً، والصياغات الشعرية أصبحت استخداماتها أكثر حرة، أدت إلى نصوص نادرة، ومثل ذلك نجده في نصوص السورة رقم 55 من سورة الرحمن، أما بالنسبة للمسلمين، فهي لغة لا يمكن الارتقاء إلى مستواها وكذلك في سعتها والتوافق اللفظي (الهارموني) فيها، وقدرة التأثير وكذلك ثرائها المتعدد الوجوه، هي البرهان والدليل القوي على أنها من اللـه.

القرآن في محتواه وغايته: صارم، عظيم، مخيف، ينطوي على حقائق لا يرتقي إليها الشك في موضع. وبذلك يختلف عن الآخرين، ولا ينبغي أن يتعجب أحد من قوة وفاعلية القرآن. وقد صاغ أستاذ مصري وجهة نظره حول أسلوب الكتاب المقدس (القرآن) بما يلي:

إن صياغة القرآن يعكس نعومة واستقرار حياة المدنية، وخشونة البدو، إذ ينطوي في آن واحد على حلاوة البداية وقوة النهاية.

* **إيقاع الكلمات:** (نهايات الكلمات)، يمكن اعتبارها نثراً، والقليل منه شعراً، والوقفات ليست نثراً ولا شعراً، وإنما على شكل إيقاعات هارمونية (متوافقة) متناسقة.
* **الكلمات المختارة**: ليست مبتذلة أو نادرة ولكنها تمنح انطباعا يوحي بالنبل.
* **الجمل تمنح انطباعا**: بنوع مثير للاستغراب، إن العدد القليل من الكلمات مستخدمة من أجل إيضاح الأفكار في المحيط الخارجي.
* **الخطاب القرآني:** هو بوضوح فوق بشري، لأنه يخرق القوانين والقواعد النفسية، ولأن العقل والمشاعر على علاقة متضادة مع بعضها البعض. في القرآن نجد تعاون وثيق دائمي بين هاتين القويين المتضادتين، إذ أننا نجد في البواعث التاريخية، عقائد وقوانين وكذلك مبادئ أخلاقية. إن الكلمات لها بالإضافة إلى الدروس المقنعة، قوتها العاطفية...ونجد عندما نمضي في ملاحظة البناء الهيكلي لأحدى السور، والقرآن بأسره، نجد أن هناك خطة لا يستطيع بشر أن يضعها أو يخترعها.

والحقيقة فإن الكثير من قصص الأنبياء في القرآن، من العهد القديم(التوراة) ومـن حيـاة السيد المسيح، لم تكن تعني لمحمد سوى مصـادقة(ملائمـة) مـع التعـاليم التـي أكـدها بوصـفها حقائق قديمة كانت قد نالت حظهـا مـن الانتشـار، وأكـثر مـن ذلـك، وحيـث وخالفـت دعوتـه النصوص اليهودية والمسيحية، فالأمر بالنسبة له(وكذلك لأي مسلم) واضح، أن الشعوب الأخـرى قد زورت ما أنزل عليها، وإن الإيمـان والاعتقـاد لـدى محمـد ومعلوماتـه الشخصـية هـي التـي استلهمها كلمة فكلمة من اللـه، وهي الخاتمـة(خاتمـة الكتـب)وفيـه (القـرآن) كـل الخلاصـات والحقائق المنقحة والمصوبة، بما لا يدع بـالطبع أي شـك في حقـائق الـدعوة الإسـلامية القرآنيـة. وبالنسبة لأي مسلم فإنه من غير الممكن أن يكذب أحد الأنبياء أو يكذب دعوته ورسالته. لذلك هناك مثال واحد استثناء من ذلك، هو عدم قبول المسلم بصلب المسيح(وهـو مـا لم يعـترف بـه الإسلام)، فإن القيمة التاريخية للعهد الجديد(الإنجيل) قد قبلت بوصفها رسالة إلهية. وبالنسـبة للمسلمين المؤمنين، فإن تعديلات وعبث بالنصوص المسيحية قد حدث عـلى يـد الـبشر، كـما أن المسلمين أكـدوا عـلى ولادة السـيدة مـريم العـذراء ودافعـوا عـن الشـكوك الموجهـة إليهـا مـن الليبراليين.

والقصص الكثيرة في العهـد القـديم(التـوراة) وفي العهـد الجديـد (الإنجيـل) موجـودة في القرآن، كانت (وربما لا تزال ـ المترجم) موضع نزاع بين اللاهـوتيين المسـيحيين وعلـماء المسـلمين. وكقاعدة، فإن محمداً كان قد حصل على قليل أو كثير من المعارف من أعراب كـانوا قـد انتمـوا إلى اليهودية أو المسيحية في فترة الانتقال من القـرن السـادس إلى السـابع المـيلادي. وكـان ذلـك مـن تـأثيرات إيـران والإمبراطوريـة الرومانيـة الشرقيـة والنسـاطرة والموحـدين والزهـاد المسيحيين في خلواتهم الصحراوية وكانوا عرباً كـما تظهـر لنـا الأشـعار، ولم يكـن هنـاك أغـراب.

كما أن العلاقات التجارية مع الولايات السورية (سوريا الطبيعية) وكذلك مع العـراق، سـاهمت بذلك أيضا بالإضافة إلى المعارف والاعتقادات التوحيدية(الإيمانية).

ووصل إشعاع وتيار المسيحية حتى مكة، ومن جهة أخرى كان ملوك الجنوب العربي قـد دخلوا اليهودية في القرن السادس الميلادي، وكانت مسـتوطنات يهوديـة قـد تأسسـت في أرجـاء مختلفة من الجزيرة العربية. وهكذا كان هناك نفوذ وتأثير يحوم في أجواء المنطقة، وقـد سـخر اليهود في المدينة من النبي بسبب عدم وضوح تصوره عن الأشخاص في العهد القـديم(التـوراة)، كـذلك كهـذه المـزاعم أو اقتباسـات أو نقـل نصـوص مغلوطـة..الـخ التـي لعبـت دوراً مهـماً في الجـدالات مـع المسـلمين وشـكلت مـادة للريفـوت Refutatio (وهـي التسـمية التـي أطلقهـا المسيحيون الجزويت على الترجمة اللاتينية للقرآن) التي ظهـرت عـام 1698 وقـد تمـت الإفـادة منها كدليل " إن محمداً قد استخدم بشكل خاطئ الحقائق من الأديان الأخرى" "هيردر" (عـالم وأديب ألماني 1744 ـ 1803 ـ المترجم) والنقاش حول عما كان محمد قـد أقتبسـه مـن اليهوديـة ليس من القصص فحسب، بل من عموم التصورات الإيمانية ومن الطقوس الدينية، وقد تسـبب في ظهور أعداد كبيرة من الأعمال (مثل أعمال ومؤلفات هيرش فيلد، هوروفيتش، كايكر، تـوري، كـاتش، فـيما كـان التـأثير المسـيحي عـلى نشـوء الإسـلام موضـوعياً كـان مؤكـداً ولكنـه غـير مباشر(استقاء أفكار). (*)

وكـذلك التـأثيرات الإيرانيـة المحتملـة، والسـبأية(ربمـا المقصـود الصـابئة ـ المترجم) وهنـاك بـالطبع أيضـا المـؤثرات العربيـة القديمـة التـي كـان لهـا تأثيرهـا على القرآن وعلى النظام الإيراني فيه، والتأثيرات المصرية القديمة، كما أننا يجـب أن

لا ننسى أبداً، أن ليست هناك ديانة تنشأ من لا شيء، بل أن كل ديانة إنما هي مرتبطة بما قبلها من نظام اعتقادات، وإنها تتلاءم مع لغتها وتصورها من أجل أن تكون مفهومة وليس ذلك ما يأخذه قائد الدين الجديد من القديم، بل كيفية صياغة توجه جديد والتركيبة الجديدة، وتلك هي المسألة الأهم.

وبالنسبة للمسلم الورع(المؤمن)، نادراً ما تطرح أسئلة كهذه، وعندما يسلم فعلاً بمادة غريبة، أو عندما يتعين عليه ذلك، فهو لا يفعل ذلك بمعنى التأكيد فقط، لما ذهبت إليه العقائد الإسلامية، والدعوات الأخرى عامة، ولكنه يدافع عن العقائد الإسلامية. ومحمد عبد الله دراز أستاذ الدراسات القرآنية في أقدم جامعة في العالم الإسلامي، الأزهر في القاهرة، والذي عرضنا رأيه حول أسلوب القرآن، فيقول في أحدث مقالة له، "أنه لا يقبل بإمكانية وجود نفوذ أو تأثير أجنبي"، بل رد بحدة على الآراء التي تقول، أن القرآن هو أفكار النبي سطرها في القرآن، ذلك أنه نفسه (الرسول) لم تكن لديه أفكار من الأديان والقضايا التشريعية قبل أن يتسلم الدعوة.

" وبدرجة معينة كانت الحكمة قد استطاعت أن تظهر له، عبث وأباطيل عبادة الأوثان وعدم منطقية الخرافات، ولكن كيف استطاع (محمد) أن يعرفها وأن يستبدلها ؟ ولكن ليس بمجرد التفكير يمكن وصف حقائق ومعارف وأحداث قد جرى حدوثها، والقرآن هو بالتأكيد دائماً على أتفاق تام مع معطيات وحقائق الأنجيل، وحتى تلك التي لم تكن معروفة لمحمد".

والدعوة (الوحي) التي رافقت محمد منذ أن كان سنه 40 عاماً تقريباً (610) حتى ما يقرب من وفاته(632)والنصوص القرآنية حفظت من قبل

أتباعه عن ظهر قلب كما كتبت أيضا بعد وفاة محمد جرى جمع هـذه القطـع، وكـامن هنـاك بعض الآيات مكتوبة بلغة عربية غير واضحة بدقـة. ففـي عهـد الخليفـة الثالـث عـثمان(644 ـ 656) حيث تم جمع وكتابة نسخ كاملة ومقبولة للقرآن إلى جانب النسخ الأخرى التي أخرجـت من قيد الاستخدام، ولكن ظل هناك واجب مهم وهو ذكر خيارات النصوص(المعـاني والتفسـير ـ المترجم).

إن ترتيب السور يتبع أسلوبا في غاية البساطة ونظام نادر الاسـتخدام: فهـي مرتبـة بطريقة أطول السور فأقصرها. والسور التـي نزلـت في أوائـل الـوحي، قصـيرة عـادة، بيـنما كانــت الســور المدنيــة(التــي نزلــت في المدينــة) هــي جمــل طويلــة. ولم يعمــل بالمبــدأ الكرونولوجي Chronologie (مبدأ التسلسل التاريخي ـ المترجم). ومن المؤكد، أنه ليس من المستحيل، مع بذل جهد تاريخي وبحوث لإعـادة تسلسـل السـور حسـب تسلسـل نزولهـا الأصلي. وقد أشر نظام أبحاث نولدكة (مستشرق ألماني معروف ـ المترجم) الطريق إلى ذلك، ومن ثم واصل باحثون آخرون أبحاثه. ومع أن من المؤكد وحتى مـن وجهـة نظـر التفسـير الفلسفي لا يمكن حل كافة المشاكل، حتى بمساعدة أفضل المستشرقين. وقـد أشـار بيـتر R. Peter مؤخراً إلى ذلك، أن طبعات القرآن تشير غالباً في بدايـة كـل سـورة إلى مكـان نزولهـا، مكية أم مدنية. ونجد أحياناً تحول من موضوع لآخر ضمن السورة الواحدة، وقـد يختلـف نظـام الترتيـب. و يصـادف المـرء صـعوبات كهـذه في الفحـص والتـدقيق في كتـب الأنبيـاء القديمة. وقام بعـض الأسـاتذة الأوربيـين في تـرجماتهم للقـرآن، بالعمـل حسـب التسلسـل التاريخي الكرونولوجي (مثل بيل Bell وبلاشير Blachere).

إن معرفة أصل السورة وتسلسلها هو أمر مهم جداً، إذ أن معاني بعض الانطباعات مؤجله، وأن بعض الآيات سوف تتضح وتصحح فيما بعد في الأبيات اللاحقة، فعلى سبيل المثال، أن النبيذ قد وصف كعطاء من اللـه، ولكن وبسبب آثاره الخطيرة قد منع فيما بعد، وهذه انتقادات وجهت إلى التأرجح والتردد في مثل هذه الظاهرة الإنسانية لا تقلق المسلمين المؤمنين. (راجع سورة يونس/2، وكذلك سورة 101/ النحل).

والسور تفتتح بالفاتحة، وهي كالصلاة الربانية(عند المسيحيين) وهي صلاة بسيطة يؤديها كل مسلم في صلاته اليومية الإلزامية، وكذلك عند الصلاة على الميت وهي من أهم الواجبات في الإسلام وأنه السلوك الصحيح المطلوب لسلوك صراط المستقيم. والخاتمة (خاتمة القرآن) تمثلها السورتان القصيرتان (المعوذتان 114/113) اللتان تحميان من الخبيث ومن الشر، بينما الخاتمة للسورة 112، وهي سورة توحيد اللـه المطلقة، سورة تلعب دوراً يصعب تقديره في الشريعة والتصوف، كما في حجج الجدال والمناقشات، في إيمان الشعب والفلسفة.

وفي بداية السورة 29(العنكبوت) هناك مجموعة غامضة من الحروف يحتمل أن تكون إشارات خاصة إلى مجموعات لمالكي النسخ، ولكنها قد تعني أشياء أخرى أيضاً حيث يفترض المرء أنها تنطوي على مغزى عميق أو غامض. فعلى سبيل المثال سورة طه أو سورة ياسين حيث لم يحل لغزها بعد. وأسماء أو عناوين السور قد وضعت فيما بعد، وكل سورة تبدأ بكلمة اللـه والصيغة الرسمية هي: بسم اللـه الرحمن الرحيم (واردة في النص بحروف لاتينية ـ المترجم)

أو عند قراءة للقرآن أو حتى لآية واحدة من آياته، ويجب على كل مسلم أن لا ينسى ذلك، كما عليه أن يفعل ذلك مع أي عمل يبدأ به.

وإنه لأمر مفهوم، بأنه وبعد وفاة محمد الذي كان صاحب الرسالة، أن يكون لذلك أهمية خطيرة لا يمكن قياسها للجماعة، إذ اتسعت الدولة وانطلقت بسرعة إلى آسيا ثم عبر مصر إلى شمال أفريقيا وإيران، بعد ثمانين سنة من الهجرة وصولاً إلى سواحل الأطلسي وإلى الهند ثم إلى أرجاء عديدة بعيدة. وكان لذلك أهميته، إذ يجد المرء كل الأسس للمواقف الدينية، لقيادة الدولة وكذلك للحياة الخاصة للناس، للدنيا والآخرة. وبالطبع كان هناك الكثير من المؤشرات ولكنها كانت ضئيلة ولا تفهم، إلا من خلال أوضاع ومواقف مادية ملموسة.

وينبغي على المرء أن يسأل الشخصيات التي كان الرسول يثق بها(الصحابة)، ما هو الموقف الصحيح حيال هذه أو تلك من الأحداث والقضايا من خلال وعرفتهم بأقوال وأفعال الرسول ومنها انبثق علم جديد، بما في ذلك أهم التصرفات والفعاليات الدينية مثل: الحج إلى مكة، وهو الفقرة أو العمود الخامس للإسلام(إلى جانب شهادة الإيمان، والصلاة خمس مرات يومياً، صيام رمضان، الزكاة) والتي لم تفهم بشكل واضح إلا منن خلال التعليمات والمؤشرات (السنة) التي أصدرها محمد وليس من خلال النصوص القرآنية.

إن الترجمة، على أن القرآن هو كلمات اللــه، كان بالنسبة للنبي وأنصاره أمراً بديهياً من خلال بعض الأدلة والبراهين في الوحي، كان قد تحول إلى مشكلة ثيولوجية (علم الشريعة) في القرن التاسع الميلادي كما برز ذلك

بوضوح من خلال مدرسة المعتزلة والقضايا التي طرحتها. وقد أحتفظ القرآن بصـفة كونـه كـلام اللـه، وكذلك كافة صفاته، وأنها ليست أزلية.

وقد وقفت الجهات المتعصبة أمامهم، وبعد صراع طويل بدا فيه أن المعتزلـة قـد ربحـوا المعركة وتراجع الدوغماتيون من المحافظون والتقليديون، وأن أفكار المعتزلة قد قبلت "ذلك مـا كان بين الطرفين حول قضية خلق القرآن". وهنا تدخل عاملان في هذا التطور، هو تعامل علـماء الشريعة الإسلامية مع اللاهوت المسيحي. وكما أن المسيح يمثل مع اللــه كيانـاً واحـداً أو هيئـة واحدة، فكذلك القرآن بالنسبة للمسلمين فهو كلام اللـه الذي لم يوضح(غير مخلوق) وقد وعي إليه ونشر بواسطة محمد، وكما بالنسبة للمسيحية حيث تمثل ليلة الميلاد العيـد الأكـبر، كـذلك تمثل ليلة القدر بالنسبة للمسلمين، وهي الليلة التي نزل فيها القرآن لأول مرة.

وكانطباع مؤكد لإرادة اللـه ووجوده، لا يمكن للقرآن أن يترجم إلى لغة أخرى، وبالنسبة للمسلمين، فإن الترجمة هي تقويض للفكر، ذلك أن القرآن ينطوي على كثير من الدقة والعمق: الجمال، سماوي، حكيم، إذ ينطوي على حكمة بحيث يستحيل تحويل الكلمـة واسـتعادتها مـن خلال وسيط آخر عدا اللغة العربية غير ممكنة وغير مشروعة، لا بل أجتهد علماء شريعة أتـراك قبل فترة قصيرة، ضد كتابة القرآن. وهناك ترجمة حديثة للقرآن باللغة الإنكليزية تحمل عنوانـاً رئيسـياً " المعـاني المجيـدة في القـرآن" The Meaning of the Glorious Koran (تجنبـاً لأعتبارهـا ترجمة حرفية للقرآن" والترجمات إلى لغات الشعوب الإسلامية، الفارسية، التركية، الأوردو...الـخ، وهي مترافقة عادة مع النص الأصلي، وعلى الأغلب تكون الترجمة بين السطور.

ومن خلال ذلك كله، أكتسب القرآن أهمية هائلة لعموم الثقافة الإسلامية، وغدا المفتاح والمحرك للحياة الروحية الإسلامية في غرب أفريقيا حتى الفلبين وصعوبة ترجمته أرغمت الشعوب التي دخلت الإسلام على تعلم اللغة العربية، أو على الأقل الأخذ بالحروف العربية(للكتابة والقراءة في لغتهم الوطنية)، لذلك توحدت حروف الكتابة في مجال الثقافة الإسلامية، اللغة العربية التي حروفها الساكنة تكتب فقط الحروف الطويلة الثلاثة: a، i، u

أما البقية فهناك إشارات حروف حيث تكفيها حروف قصيرة، التي لا تكتب في أكثر الجمل، أو فقط في الحالات الصعبة، ربما أنها لا تناسب الأتراك أو الفرس أو البربر أو الباشتون والماليزيين أو السنديين.

إن الأسلمة (أي الدخول إلى الإسلام) Islamisation، تعني توحيد الكتابة وهجوم عاصف للكلمات العربية وأنماط حديث في اللغة، تطور يواجه منذ البداية حتى النهاية جوهرياً، توجهات الكبرياء الوطني، حتى تلك التي لا تعرف شيئاً عن اللغة العربية، وعليها على الأقل تعلم السور القصيرة من أجل إقامة الصلاة ولا سيما الفاتحة واسم الله الذي لا بد من ذكره وكذلك حفظ (Häfiz) أو الذين يستطيعون حفظ القرآن وإلقائها بتلحين مختلف(تجويد ـ تلاوة) وأغلب هؤلاء صبية في البلدان غير العربية يبدأون بحفظ القرآن عن ظهر قلب (مع أنهم يبدأون بعد سورة الفاتحة بالحفظ من آخر القرآن) لا يفهمون معنى الكلمات، وفن التجويد والإلقاء قد تطور بصفة فائقة وكذلك فأن المحايد(غير المنحاز) لا يستطيع الحكم طبعاً على جودة التجويد من حيث التفصيلات التكنيكية على الرغم من أنه يجده مثيراً وجذاباً بينما يطلق الجمع الواقف أو الجالس هنا وهناك صيحات الاستحسان بكلمة (الله) طويلة.

ومن أجل جعل مغزى القرآن مفهوماً للـذين ليسـوا عربـاً، فقـد تطـورت القواعـد (النحــو والصرف) وكــذلك قــواميس اللغــة والمعــاجم والموســوعات بســبب الكتــاب المقدس(القرآن) وكذلك في التطور المتنامي للتفسير، ونذكر هنـا فقـط التفسـير ذو الثلاثـين جزءاً للطبري في مطلع القرن العاشر الميلادي، وكذلك التفسير الشهير للزمخشري(الكشـاف) وتفسير البيضاوي في 133 جزءاً وتفسـير الجلالـين للسـيوطي في القـرن 15، وهـذه صـادرة باللغة العربية والتي شرحت ودرست القرآن فلسفياً وتاريخياً بدقة سورة اثر سورة، ثـم أن هناك عدداً لا يحصى من التفاسير في لغات الشعوب الإسلامية (غـير العربيـة) والمناقشـات حول القرآن في مقاطع ومسائل تفصيلية.

وقد تابع الأستاذ كولدتسيهر Goldziher في محاضرته الأساسـية الموسـومة " اتجاهـات في الدراسات الإسلامية للقرآن"، تابع هذه التطـورات منـذ بـداياتها، وتعريـف النصـوص ومواصـلة وسـائل تحـديثها وأجـراء تفسـيرات جديـدة لمـا لم يعـد مقبـولاً، حـدثت في العصـور القديمـة، وتدخلات الأجنحة المتشددة (المحافظة)، والوعاظ الذين لم يكونوا ليقبلوا أن يـذكروا التفاصـيل عــن الجنــة والجحــيم التــي لم تــرد في النصــوص (القــرآن) إلا بإشــارات تــذكر بطـرق جذابـة للمستمعين.

ولكن حتى الفلاسفة حاولوا أن يفهموا القـرآن حسـبما يرتـأون وعـلى شـاكلتهم وبصـفة خاصة الصوفية الذين أخذوا من نصوص القرآن ما يناسب نظرتهم إليه، وبالتالي فقد بـدا غريبـاً النظر إلى القرآن نظرة سطحية(خاطفة) لأول وهلة، مما يترك انطباعا وكأنه ديـن معتـدل رزيـن وهادئ، في حين لا يوجد فيه ما هو صوفي وغامض. وقد كان الورع وشدة التـدين سـبباً للنسـاك

الإسلاميين الأوائل (المقصود المتعلقون بشدة بأهداب الـدين ـ المـترجم)، ومـن شـدة خشـيتهم التخلي عن مهام القضاء إلى سادة المحاكم والدولة بسبب خوفهم من السقوط في الكفر والخطأ عند أجتهاداتهم في تنفيذ تعليمات الصلاة والصـيام والأفعـال الحسـنة، فقـد كـانوا يحـاولون أن يجعلوا الممنوع والمسموح مما هو موجود في القرآن مقبولاً وعدلاً في أزمنتهم، كما حـاولوا دائمـاً الحفاظ على الصلة الحيوية مع القرآن.

ويحكى عن الصوفية الذي يعرف أحدهم 7000 تفسيراً لآية واحدة من القرآن، وإن ليلـة كاملة بطولها لا تكفي لشرح آية واحدة مـن القـرآن. وبـالطبع فـنحن نـرى هنـا أسرار لا سـبيل لقارئ عادي إليها. ومن المؤكد أن هناك الكثير من السورة الآيات القرآنيـة أصـبحت موضـوعات مستحبة للمسلمين الورعين المتأملين والشعراء.

ومن أشهر الآيات والسور هي 172/ سورة الأعراف، وفيها يخاطب الـرب الغـير مخلـوق ويشهد بأنـه سـيدهم، وهـي الموضـوعة المحببـة للشـعراء والتـي منهـا يجـدون تنويهـاً لحـبهم وشوقهم الأبدي أو في سورة النور ـ 35) اللــه كنـور السـموات والأرض، أو في سـورة البقـرة ـ2) المكتوبة بلغة جميلة في الكثير من المساجد، أو تلك الآية من سـورة المائـدة ـ 54) " سـوف يـأتي الـلـه بقوم يحبهم ويحبونه" وهي عند المؤمنين إشارة إلى محبة الـلـه وعلامـة لإمكانيـة المحبـة المتبادلة بين الخالق والبشر. وكذلك الرؤى في السورة53ـ النجم) وفيها الإشارة إلى سـفرة محمـد الليلية، 1/ الإسراء) والآية المعروفة أكثر من جميع الآيات، بأن كل المخلوقات هي لـلـه وسـتعود إليه " إنا لـلـه وإنا إليه راجعون ـ المترجم).

ومن خلال المجتهدين بالتحديد، تغلغلت الرموز القرآنية عميقاً في الشعر العربي، وعلى كل لسان. وإن فهم هذا الشعر غالباً لا يمكن فهمه البتة بدون معرفة جيدة للقرآن، عندما يكون خد الحبيب، كاليوم المضئ"، هكذا على ضوء كلمات السورة 93/الضحى، عن الأنبياء وعن صفاتهم المميزة، عن المسيح، الجبال المتراقصة، حيث يكون على القارئ أن يجد الرسوم المماثلة من قصص القرآن(ومثل ذلك التشابه في الإنجيل أيضاً) وهذا ممكن ولكن بعد التمكن من اللغة القديمة، مع اقتباسات من الكتاب المقدس(الإنجيل) وكان ذلك الحال أيضا في باكر عهد البروتستانت، وكذلك كان الحال مع كتب هومور(هوميروس / الأديب الإغريقي ـ المترجم) الذي كان من الصعب والنادر فهمه لشخص غير خبير في الرؤى الانعكاسية (التأويلات)، وهكذا فإن بوسع أي أقصوصة تركية شعبية حسب الدراويش البكداشية، الإجابة على هذا السؤال: لماذا لم يعمل بالآية القرآنية " لا تقربوا الصلاة "، لأن مواصلة الآية تقول " وأنتم سكارى""النساء / 43).

إن وضع القرآن الذي كان قوياً، (يقصد بوضع القرآن: الموقف، التفسير ـ المترجم)وكان مؤثراً أيضاً على الشعوب، وبديهياً على الفئات الإسلامية(الطوائف والمذاهب) التي قامت إليها الظروف. وهكذا يحاول الشيعة تفسير الكثير من الآيات القرآنية لصالح علي، ابن عم النبي وصهره، وبحسب أفكارهم حول الخلافة، وفي بعض الآيات ضد الخليفة الأول بعد الرسول(أبو بكر الصديق)، بغض النظر من أن الشيعة يعتقدون أن بعض الآيات التي حول دور علي قد حذفت من قبل الخلفاء الأوائل. إن التفسيرات القائمة على الاستعارة والتشبيه قد مضت بعيداً في عرض وتفسير القرآن إلي مذهب الإسماعيلية(الإمام الشيعي السابع) الذين لقبوا بالباطنية، الذين يعولون على

المعنى الداخلي ويفهموه على طريقتهم ويضعون أتباع هذا المذهب على درجات من الوعي والإطلاع والعلم على أسرار آيات القرآن، حيث يكمن المغزى في النهاية خلفهم(أي حسب تأويلهم وحسب الهدف ـ المترجم).

وكل حركة أصلاحية في الإسلام كانت تعتمد أيضاً على القرآن وهداه(ربما يريد المقارنة مع الحركات الإصلاحية المسيحية ـ المترجم)، وعندما واجه العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والعشرين المكاسب التكنيكية التي أحرزها الغرب، أرتفع في أماكن عديدة السؤال: ما هو مدى اتساع أو محدودية الصورة العالمية: انتظار يوم القيامة(الآخرة)، الإشارة إلى عادات الحياة(الحياة الشخصية للنبي) مع التطورات الحديثة للحضارة العالمية المدنية، وأن تكون مادة للمناقشة.

وقد بحثت أحدث الحركات التي انطلقت في مواجهة السلطة البريطانية في مصر وتركيا، ووجدت أفكارها في القرآن، وقد توصلوا إلى قناعات، إذ تمكن المسلمون في مجرى القرون، من إنجاز كمية هائلة من الكتب حول جوهر الإسلام البسيط، وكتب التفسير والشرح للكتاب المقدس(القرآن)، وهكذا فإن النفس الزاخرة بالحيوية والعمل الخلاق تسببت بخنق هذه الحركات، وقد كان مفترضاً، هكذا أدعى محدثون من جميع الاتجاهات، أكدوا على أن القرآن والدعوة كان الأساس الوحيد للإسلام (وبعضهم استبعد الكتب الدينية الموروثة)، أكدوا على التفسير الصحيح، وإعطاء القرآن المكانة في كل حالة في الحياة الخاصة والسياسية في المجالات الدينية والاجتماعية.

وعندما لا يتوفق عالم حديث ومحدث أو شارح تقليـدي للقـرآن في عـرض أفكـاره، فـإن الخطأ يثير الكثير من سوء الفهم حول القرآن، ويجد السير(لقب بريطاني) محمد إقبـال الشـاعر والفيلسوف الكبير في الإسلام والهند، والأب الروحي لباكستان، في كتابه " عالم القـرآن" و" كتـاب الأبدية" الدليل الوحيد الصحيح للفكر الإسلامي، وللتعامل بدون تردد، ويحاول أن يجـد تفسـيراً لأراء بيرجسون وآينشتاين في تفاسير إيمانية من آيات الكتاب(القرآن).

وفيما إذا كانت اقتباسات وتفسيرات إقبال الفلسفية، وضعت الأساس المثير والمهم لرؤية إسلامية حديثة للعالم، فقد حاول مفسرون وشّراح آخرون للقرآن إيجاد صلة وتفسير بين القـرآن والضياء الكهربائي، بل وحتى مع القنبلة الذرية، وبـذلك فقـد أحـرزت عمليـة تحـديث الإسـلام الكثير من المحاولات، وإلى ذلك المجهود ينتمي أيضـاً محـاولات كتلـك التـي قامـت بهـا الحركـة الأحمدية في محاولاتها للترجمة والنقل والاستعارات والاقتباس من القرآن، رمـوز وإشـارات عـلى يوم القيامة، بهدف تفسير عقلاني ومبسط، ويتبـع ذلـك أعطـاء وصـف لجـمال وجاذبيـة الـنص للسورة ذات الإيقاع الشعري الراقي، مثل سورة التكوير، والذي يضم إشارات إلى المستقبل الذي فيه تحشر الحيوانات معاً، ويقصد بها حديقـة الحيوانـات، وهنـاك أكـثر مـن ذلـك بهـذا المـآل. والأحمدي هي الطائفة الإسلامية الوحيدة التي لم تجيز ترجمة القرآن فحسـب، بـل طالبـت بـه على عكس التيار المحافظ.

وكان القرآن لقرون قـد مثـل الأسـاس أو القاعـدة لكافـة الاتجاهـات الدينيـة والفلسفية، رمـوزاً غـير قابلـة للنضـوب والاجتهـاد والشـعر، ووفـرة المـادة والسـلوى للملايـين مـن المـؤمنين، حتـى إذا كـانوا لا يفهمـون كلماتـه، كـذلك فـأن معانيـه

بالنسبة للفنون التشكيلية لا يمكن تقديرها. والإسلام لم يمض بعيداً في عرض النفس البشرية، وبتلك الزخارف والتهاويل، وفن الأرابيسك والزخرفة بالرسم الهندسي، وأكثر من ذلك، فن الخط منذ القدم وحتى الآن يعتنى به في البلدان الإسلامية وكتابة كلام الله(القرآن) بأبدع الخطوط، كان من أبرز منجزات وإبداعات فن الخط. وقد أبتدع في القرون الأولى الخط الكوفي، ذو الزوايا، ثم يتصاعد ببطء من الخط المكتوب على الرق(الجلد)، سواء كتبت الحروف بزخرفة خطية، أو أنها كتبت آيات القرآن بخط رائع جميل، ثم حفرت(نحتت) على الحجر، أو على القيشاني ووضعت على البوابات، أو توجت بها قباب المساجد، أو على صفحات كبيرة لنسخ خاصة من القرآن قدمت لحكام أو لشخصيات مهمة بحروف متناسقة من خط الثلث أو النسخ، بحبر اسود وذهبي، أو مكتوبة بحرف دقيق لا يمكن فكها(قراءتها) إلا بواسطة عدسة. والصفحات الأولى منها (صفحتان ـ المترجم) مزينة بحروف عربية (أرابسك) بالذهب، ومجلدة بجلد نفيس. وكل خطاط ومذّهب(من يطلي بالذهب)، والعاملين في الموزائيك، مجلدي الكتب، كان يقدم أفض ما يمكن فعله وما بوسعه، ليعطي أفضل مظهر ذو قيمة لعمله، وكتب بأوامر الكثير من الحكام خلال القرون، نسخ رائعة فنياً من القرآن.

وكم من البيوت التي تعلق بدلاً عن الأشكال الفنية أو اللوحات، كتابات من القرآن في إطار، أو كتابة مزخرفة، التي ليست مكرسة فقط حول المغزى وشكل ومعنى الكتاب المقدس، بل وبنفس الوقت كوسيلة حماية وكتعويذة(تمائم) كما أن كثير من سواق سيارات التكسي يتخذون نسخاً مصغرة جداً من القرآن كحماية ووقاية يضعونها على الزجاج الأمامي لسياراتهم، وفي

عدد كبير من البيوت نشاهد فوق سرير رب وربة البيت، القـرآن في كـيس جميـل مـن الحريـر يقدم الأمن والحماية لهذه الحياة الزوجية.

والقرآن يـأمر أيضـاً، أن لا يلمسـه إلا مـن هـو عـلى نظيـف (الطـاهرون، عـلى وضـوء ـ المترجم) ويجب أن يحتفظ في مكان نظيف، ولا يحق لغير الطاهرين(النساء مثلاً في أيام معينة) أن يلمسوه، إلا بعد الطهارة الكبرى(الاغتسال التام ـ المترجم)، ولا يحق لنا مناقشة النصوص (في إطار النقد) إلا لمؤمن في طقوس طهارة. ومن أجل توثيق المكانة العاليـة للقـرآن، عـلى المـرء أن يعتني به (على الأقل في تركيا) بوضع القرآن في الرف أو الطبقـة العليـا مـن المكتبـة، وفي بيـوت الفلاحين ويعلق بعناية داخل محفظة، كما يجب أن يقّبل القرآن قبل فتحه.(عـلى الأرجـح فـأن الأستاذة شيميل، تنقل مشاهداتها الشخصية في تركيا). وهنا فإن الإيمان بكلام اللـــه بـين دفتـي الكتاب يقود حتى آخر مدى في تبعاته، لذلك يطبع القرآن اليوم في تركيا بوسائل طباعيـة راقيـة سواء من حيث ترتيب الحروف والسور وتقسيم الصـفحات، وربمـا تقسـيم الصـفحات وإعطـاء المجال للتفسير. ومثل هذه المبادرات كانت تواجه من التيارات المحافظة بقـوة، وسـاد الاعتقـاد لفترة أن أي تغير في ترتيب القرآن يؤدي إلى التحريف.

وقد مارس الكثير السحر باسم القرآن(وربمـا التنجـيم، مـع أن الإسـلام يقـف بصراحة ضد محاولات كهذه ـ المترجم)، فيما مثلـت كلـمات اللـــه في القـرآن قـوة وفاعلية عند المسلم سواء فهمهـا أو لم يفهمهـا، وتفسـير هـذه السـورة أم تلـك. أو تكرارها بعض الآيات ثلاث، سبع، أربعين مرة، بالنسـبة للمسـلم هـي بمثابـة عمـل وواجـب، وقـد تكـون لإيفـاء نـذر بقولـه " إذا حـدث هـذا أو ذاك فسـوف أتلـو

سورة ياسين أربعين مرة " وياسين هـي السـورة 36 مـن القـرآن، وتقـرأ بالدرجـة الأولى للمـوتى، ولكنها تصلح أيضاً بوصفها ذات فاعلية خاصة.

وهكذا تتأسس الحياة الإسلامية في كافة تعبيراتها على القرآن. إن ترجمة أو تفسير وضـع من قبل شخص غير مسلم، يصعب أن يترك لديه انطباع عن السـلطة أو القـوة كـما يتركـه هـذا الكتاب على حوالي 350 مليون مسلم(لا شـك أن الكاتبـة تعتمـد عـلى أخصـائية قديمـة لأعـداد المسلمين في العالم، حيث تبلغ اليوم المليار والنصف نسمة ـ المترجم).

وفي العقود الأخيرة، فقد جرى بالتأكيد تحول في بلداننا الغربية من تفهم حيـال الثقافـة الإسلامية. وعبر أستاذ فرنسي وهو : د. ماسون D. Masson قبـل فـترة قصـيرة مـن خـلال إجـراء مقارنة دقيقة ما ورد في القرآن من تعاليم حول : الـلـه، الخليقة، الحياة الأخرى، النبوة، وكـذلك أيضاً التعاليم اليهودية والمسيحية كأساس من أجل تفهم أفضل بين الديانات الكبرى الثلاث التي فيها بالتأكيد جذر مشترك، وأن اهتمام الديانات الثلاثة وهي (بحسب رأي ماسون) تؤكـد بحـق أنها تبين للبشر، أن كل شيء إنما جاء إلينا من الـلـه وإنه إليه لراجع.

وإذا وجد القارئ الألماني الصعوبة في التلقي، ربما من خلال المشكلات الكثيرة، القانونيـة، السياسية، والطبيعية الخاصـة جـداً الموجـودة في القـرآن، إلى جانـب الأفكـار الرئيسـية، ولكنهـا بالنسبة للمسلم ليست سوى تعبيرات عن حياته ولابد أن تكون بالتوافق مع إرادة الـلـــه، إرادة لا يمكن بعدها أن يسأل المرء شيئاً، وإذا كانت هذه ذات وقع غريب على شعورنا وعلى محيطنا الـديني واليـومي، ربمـا تحـيره، لـذلك فإنـه أمـر جيـد هنـا أن نتـذكر غوتـة(يوهـان فولفكانـك

غوتة: أديب وشاعر ألمانيا الأكبر، معروف بتعاطفه الشديد مع الإسلام، وإعجابه بالرسول محمد ـ المترجم) الذي وصف القرآن في كتابه " ملاحظات ومعالجات للديوان الغربي ـ الشرقي:

الاعتقاد أو عدم الاعتقاد يتقاسمان في الأعلى والأسفل، السماء والجحيم هما الإقرار والأفكار، أحكام تفصيلية، مسموحات، قصص رائعة للديانة اليهودية والمسيحية، إسهاب وتفاصيل من جميع الأنواع، إطناب لا حدود له واستنادات تشكل جسم هذا الكتاب المقدس، الذي نذهب إليه وقتما نشاء، ودائماً نفر من جديد، ولكن دائماً تجذبنا في جلسة غريبة وفي النهاية نقدسها".

ثامناً: الحملات الصليبية

بروفسور. دكتور غيرهارد هوفمانProf . Dr. Gerhard

شهد نهاية القرن الحادي عشر ما أطلق عليه المؤرخون بالحملات الصليبية، وهي غزوات استعمارية شنتها أوربا في الشرق، حيث قامت هناك بتأسيس كيانات ودول أقطاعية مؤقتة هناك حسب النموذج الأوربي، ولكن ما لبثت الأقطار العربية في المشرق أن واجهتها وخاضت ضدها نضالاً متحداً وقاومتها.

فمن أجل (تحرير القبور المقدسة) في القدس، كما جاء ذلك في نداء البابا أوربان الثاني عام 1096 في بلدة مونت كلير الفرنسية، تحركت مجموعات ضخمة من جيوش للإقطاع الأوربية ومن الفرسان، وجموع من المتدينين(كنائسيين) وكذلك من الشخصيات المعتبرة، ومن الفلاحين العبيد (المملوكين) والمغامرين ومقطوعي الجذور. وإذا لم يكن ممكناً هنا أن نورد الأسباب المختلفة لحركة الغزوات الصليبية في أوربا،(وبنفس المعنى كانت تدور الحملات ضد العرب في أسبانيا (الاستعادة) Reconquista، في توسع للإقطاع نحو الشرق)، ولكن ليس من العسير أن نثبت بأن المصالح السياسية والاقتصادية لمختلف الطبقات والفئات والمؤسسات كانت كامنة ومستترة خلف الشعارات الدينية.

وقد أسس غالبية الإقطاعيين الصغار والمتوسطين وكذلك الفرسان أفكارهم، وبنوا آمالهم وعولوا على كسب أراضي واسعة وعلى غنائم وفيرة. أما الفلاحون المملوكون كانوا يأملون بأنهم ربما سينجحون في سحق

الإقطاعيين، فيما كانت الكنيسة البابوية تسعى على توسيع سلطاتها وتثبيت موقعها القيادي لمسيحي الشرق الذين ينتمون على مختلف الطوائف والمذاهب المسيحية، بينما كان التجار الأوربيون في المدن الإيطالية مثل جنوه، بيزا، البندقية، يسعون من خلال تقديم الدعم لحركة الغزوات الصليبية، إلى تقوية مواقعهم بكل السبل في منطقة شرق البحر المتوسط في وجه المنافسة البيزنطية والمصرية الحاسمة.

وكانت المقدمات الأساسية لنجاح الحملات الصليبية قد تمثلت بسقوط مركزية الدولة الواحدة، السلجوقية في الشرق العربي، بالإضافة إلى الشلل المتسارع التنامي للدولة الفاطمية في مصر على الصعيد السياسي والعسكري، وبما يقارب ذلك في المدن السورية وفي بلاد ما بين النهرين، حيث كان السلاجقة الأتابكيون والأمراء وزعماء القبائل في صراع شديد فيما بينهم. وأخيراً في المساعدة الطبيعية لهم من جيوش الدولة البيزنطية التي كانت تنتظر هذه المناسبة منذ أجيال.

أما الخليفة العباسي في بغداد كان منهمكاً في النضال من أجل استعادة ورفع مكانة وهيبة مؤسسة الخلافة ضد السلاجقة في العراق، فلم يكن يمتلك النية ولا الوسائل لإعلان الجهاد (الحرب المقدسة) للمسلمين ضد غير المؤمنين(الكفار). وقد أستغل الحكام الفاطميون في مصر من جانبهم الانتصارات الصليبية الأولى في المعارك ضد السلاجقة في آسيا الصغرى وشمال سورية، في الأراضي الفلسطينية، فأفصحوا عن نواياهم ورؤيتهم باقتراحاتهم تقسيم سورية وفلسطين فيما بينهم وتشكيل جبهة موحدة ضد السلاجقة.

وكانت الأقسام المختلفة للحملة الصليبية قد أتحدت عام 1097 في القسطنطينية، وبدأت الزحف عبر آسيا الصغرى، حيث استولت على المقر الرئيسي للسلاجقة في نيسا Nicaa ثم اتخذت طريقها عبر كليكيا الأرمينية باتجاه سورية، على الرغم من أن الظروف المناخية كانت قاسية بصفة خاصة على الفرسان المثقلين بالدروع مما زاد في حجم الصعوبات سواء للعربات (كان الكثير من الفرسان قد اصطحبوا عائلاتهم وخدمهم معهم) أو من الهجمات الخفيفة المستمرة، وقد تمكنت القطعات السلجوقية المتحركة بفاعلية من إعاقة تقدم الجيوش الصليبية التي بدأت تتقدم ببطء في جبهة دفاع مغلقة.

وبعد ذلك تمكنت القوات الصليبية من احتلال مدينة اديسا Edessa الإستراتيجية المهمة، حيث أسس هناك بالدوين فون بولون Balduin Von Boullon دوقية فيها. ثم سقطت مدينة أنطاكية بسبب خيانة ضابط أرمني بعد حصار دام ثمانية أشهر. وهكذا جرى احتلال هذه المدينة التي شهدت مذابح للمسلمين، كما قام المسيحيون بنهب وسلب السكان المحليين.

وكان التنازل الشكلي الذي قدمه قيصر بيزنطة أسس نورمان بوموند فون تارنت Norman Bohemund Von Tarent إمارة في أنطاكية أيضا، وبهاتين الإمارتين مكث الكثير من قادة الحرب الصليبية في المناطق المحتلة دون أن يظهروا أي اهتمام باحتلال القدس.

وكان معظم الحكام المسلمون في المدن الساحلية، بما في ذلك بيروت، ومن أجل نيل رحمة الغزاة، يسمحون للصليبيين باستباحة أراضيهم الخصبة وبساتينهم، وبتقديم الطعام للقوات الصليبية، وكذلك من خلال تقديم الهدايا

لقـادتهم والسـماح لهـم بـالتجول الحـر في أراضـيهم. وهكـذا تمكـن عشرون ألـف مقاتـل مـن الصليبيين من الوصول إلى القدس التي هاجموها بعد حصار دام شهراً في تمـوز / 1099. وفتكـوا بالمدينة وسكانها، إذ كان الحاكم الفاطمي للمدينة وحرسه الخاص ومسلمي المدينـة مـن عـداد الضحايا في المدينة التي لم يستطع أحد أن ينجو منها بحياتـه، بـل وحتـى أن أعـداداً مـن يهـود المدينة قتلوا حرقاً في الكنيس الرئيسي للمدينة، وبذلك فإن حوالي سبعون ألفاً من سكان المدينة فارقوا الحياة.

والحديث هنا عن الوحشية المنقطعة النظير وقسوة قوات الحملة الصليبية الذين كانوا: " كمن مسهم الجنون، يقتلون كل شخص يصادفهم في الطريق من الرجال والنساء والأطفـال في الطرق والشوارع والبيوت والجوامع، وبدون تميز ".[1]

وبعد الاستيلاء على القـدس، اسـتتب الأمـر لقـادة الحـروب الصـليبية بـدعم فعـال مـن أساطيل المدن التجارية الإيطالية، ومـن المـدن السـاحلية الشرقيـة للبحـر المتوسـط والتـي كـان قادتها من المسلمون المحليون قد ارتضوا دفع ضريبة سـنوية في علاقـة تبعيـة إلى ملـك القـدس وبعلاقة شكلية من التبعية إلى مملكة القدس التي كانت تحت بوبلون ولاحقـاً أخـوه بالـدوين. كما كان هناك حكام إقطاعيون (من الصليبيين) في مدن مثل أيدسـا وأنطاكيـا ولاحقـاً طـرابلس. وفي الحقيقة فإن الزعماء الإقطاعيين تصرفوا ولم يكن الملك في القدس سوى شـكلياً، وفـوق ذلـك منحت امتيازات خاصة للمقر الرئيسي للتجار الإيطـاليين في المـدن السـاحلية. فـيما شـهد نظـام الفروسية نمواً سريعاً، الذين كانوا الحـماة الحقيقيـين للحملـة الصـليبية، وكـانوا يبـدون وكـأنهم رجال وفرسان الملك.

وكان نقل النظام الإقطاعي الأوربي إلى المناطق التي كانت تحتلها القوات الصليبية يعني لجماهير الفلاحين المسلمين والمسيحيين، يعني اشتداد حدة الاستغلال مترافقة مع ضغط إيديولوجي متصاعد. وقد شكل ذلك الأساس لأضطرابات كثيرة للفلاحين والتي منها: انتفاضات كالتي جرت في عام 1125 في أنحاء بيروت.

ولم يحقق قادة الحملات الصليبية أي تحسن في الحياة الاقتصادية للشرق، التي كانت بصفة عامة في مستوى أعلى مما هي عليه في أوربا. وهذا ما عبر عنه ازدهار التجارة التي كان التجار الإيطاليون الذين كانوا ينقلون بتزايد المنتجات الشرقية (مصنوعات) إلى أوربا، كما أنهم أخذوا تقاليد وأساليب زراعية من الشرق، وقد أستشرق العديد من أمراء الحملات الصليبية ولكنهم لم يتوصلوا إلى الحياة المرفهة للفئات العليا التي عاشوها في الشرق، وهم الذين أخذوا عن الشرق تقاليد وعادات التدبير المنزلي، الملابس التي نقلت إلى أوربا، والتي جرى تأصلها هناك. وكان الحجاج المسيحيون(إلى القدس وبيت لحم ـ المترجم) خير واسطة لعملية التبادل هذه، وكذلك قادة الحملات الصليبية الذين يطلق عليهم في أوربا البرابرة.

أحرز التنامي السريع لاتجاهات القوة المركزية في دول الإقطاع الصليبية، والمنازعات بين الحكام السلاجقة ولا سيما حكام الموصل، حلب، دمشق، والفعاليات الإرهابية للإسماعيليين الجدد "الحشاشين" الذين سرعان ما بدأوا بالقتال ضد الصليبيين وضد السلاجقة، في النصف الأول من القرن الثاني عشر صورة ملونة ولكن مؤقتاً، وبعد عدة نجاحات انهارت تلك الائتلافات

وغالباً ما كان يلاحظ وجود حكام مسلمين ومسيحيين في نضال مشترك ضد مـن هـم منتمـين إلى دينهم.

وتمثلت نقطة التحول التي كانت في مصلحة القضية العربية والإسلامية، بنهـوض أتابكـة الموصل، وشخصية عماد الزنكي، الذي تمكن بعد استلامه للسلطة في حلب تمكن عـام 1144 مـن استعادة أديسا، والحملة الصليبية الثانية جـاءت نتيجـة لـذلك، وقادهـا الملـك لودفيـغ السـابع Ludwig VII الفرنسي، والملك كونراد الثالث الألماني Konrad III والتي انتهت بفشل كامـل. وبـدأ القادة الجدد للقوات الصليبية الذين يجهلون المعطيات السياسية المعقدة لـلشرق، القتـال ضـد دمشق التي كان سلاجقتها وقادتها قـد وقفـوا إلى حـد الآن مـع الصـليبيين وقـاتلوا معهـم ضـد الموصل وحلب، كما كان بارونات القدس الإقطاعيين من مملكة القدس يعرقلون حصار دمشـق، ولكن لم يكن بوسعهم منعه إذ أن مشاعر سـكان هـذه المدينـة قـد أنقلـب بشـكل نهـائي وتـام لصالح الزنكيين، وهكذا فقد استولى أبن الخليفة الزنكي في المناطق السـورية نـور الـدين الـزنكي عام 1154 على دمشق دون أن يلاقي مقاومة تذكر.

أنصـب اهـتمام قـادة الصـليبيين والـزنكيين الآن عـلى السـلطة الفاطميـة في مصر التـي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، والتي مثل ميناء عسقلان الحصن الأخير لهـا في المشرق العـربي، ثـم فقدتها على أيـدي الصـليبيين عـام 1153. أمـا مصر فقـد كانـت وبسـبب موقعهـا الاسـتراتيجي وإنتاجها الوافر من الصناعات الحرفية والمنتجات الزراعية، لها أهميتها في تجارة البحر المتوسط، هـدفاً مهـماً لكـل الأطـراف المتصـارعة عـلى السـلطة والسـيادة. وبعـد معـارك عديـدة ذات نتـائج متباينـة، تمكـن الـوزير الفـاطمي شـاور الـذي نـال دعـماً مـن نـور الـدين الـزنكي بعـد

أن أوفد إلى مصر ضابطاً كردياً مقتدراً (شيركو)، تمكن من الانتصار على منافسيه في الداخل وعلى القوات الصليبية التي سرعان ما نالت مساعدة من الملك آماريش الأول Amalrich I ملك القدس ضد شيركو وقواته.(وكان قد أقيم في القاهرة معسكراً مؤقتاً للصليبيين)، وأخيراً تمكن شيركو عام 1169 من دخول القاهرة واستلامها.

وكان الخليفة الفاطمي، العادل، والذي لم يكن له حول ولا قوة(1160 ـ 1170) كان (وكما هو مألوف في السنوات الأخيرة)، طفلاً على العرش، فكان عليه أن يعين شيركو وزيراً، وهي وظيفة حل بها بعد وفاته بشهرين أبن شقيقه صلاح الدين يوسف بن أيوب (1138 ـ 1193) وهو الرجل الذي أشتهر في التاريخ الأوربي بأسم صلاح الدين Saladin .

وصلاح الدين وهو أبن لضابط كردي يعمل في خدمة الزنكي، نفسه كان ضابطاً في جيشه، ثم أصبح لاحقاً مؤسساً للعائلة الأيوبية في مصر. فبعد وفاة نور الدين الزنكي عام 1174 (وكان تابع له شكلياً) بدأ ينتزع نفسه من موقف الدولة التابعة للزنكيين، في ظل وضع كانت فيه قدراته وإمكاناته تتطور. وخطوة فخطوة بدأ باحتلال مواقع الزنكيين في سورية وبذلك أمكن له توفير المقدمات الجوهرية الأساسية في القتال والانتصار على الصليبيين.

وعندما توفي الخليفة الفاطمي عام 1171 أستعد صلاح الدين كداعية مجتهد للإسلام السني المتشدد، لأن يجعل نهاية للسيادة الشيعية على مصر، وأن يذكر أسم الخليفة العباسي، وبذلك أعترف بالخلافة العباسية والارتباط بها وإن شكلياً. وفي عام 1174 ـ 1175، صادق الخليفة العباسي على سلطة صلاح

الدين والأيوبيين ومنحه لقب سلطان. وكانت نهاية الأسرة الفاطمية، وكذلك الحل العنيف للوحدات العسكرية المؤلفة من السودانيين والبربر وتأسيس جيش كردي ـ تركي. وكان النظام السلجوقي مطروحاً كمثال في الإقطاع العسكري جاهز للتطبيق الكامل، ولم يجد أي رد فعل من الشعب المصري الذي كان بفئاته العليا والدنيا من المذهب السني.

وأدت العقود الأولى من حكم الأيوبيين في مصر وسورية، جزئياً إلى تقدم اقتصادي جديد. وقد رفعت الحكومة الجديدة الكثير من الضرائب الجائرة، وخفضت الضرائب على الأرض من أجل إدارة الاقتصاد الزراعي، وكذلك من خلال تحسين أساليب الري، كسبت أراضي جديدة والبعض من هذه الأراضي أخذت من القطاعات(الأملاك العسكرية) التي هي الآن خاضعة بشكل مباشر لهدف الإنتاج الزراعي ومضاعفة أرباحها.

وكان لإزاحة احتكار الدولة للعديد من الصناعات اليدوية والتجارة قد أدى إلى تصاعد الإنتاج الحرفي، وإيجاد أنظمة كمارك مختلفة. وأما بالنسبة إلى التجار، فقد مثل ذلك ازدهارا لعهد التجارة البعيدة المدى، وكل هذه الإجراءات كانت تعني ضرورة وجود دولة مركزية قوية، وبالقياس مع الانهيار اللاحق حيث ساد الكساد والفوضى في الاقتصاد والعودة من جديد في اشتداد الاستغلال المباشر للقوى المنتجة.

ومضى صلاح الدين معتمداً على القوات المنظمة المؤلفة من العناصر الكردية ـ التركية، وكذلك على ضعف السلطة الزنكية ومستثمراً ذلك في بناء وتكوين سلطته بصورة منظمة. وبعد عشر سنوات من القتال كان الأيوبيون قد

أصبحوا سادة مصر والحجاز واليمن وسورية وفلسطين(طيلة احتلالها من قبل الصليبيين) وعبر بادية بلاد النهرين.

وقدم رشيد الدين زينان الملقب بعجوز الجبال، وهو رئيس الحشاشين في سورية، تنازلات لرفع الحصار عن قلعته من قبل قوات صلاح الدين في عام 1176 وأكد فيها إيقاف جميع الهجمات الإرهابية ضد أي طرف كان. وهكذا تمكن صلاح الدين أخيراً عام 1187 من إلحاق الهزيمة بالصليبيين في فلسطين الذين أنهكوا بسبب قتال دفاعي طويل الأمد، في خطوط طويلة ومنها شريط ساحلي طويل، أسر فيها ملك القدس، وكذلك شخصيات دينية ووجهاء نظام الفرسان وعدد كبير من الشخصيات الإقطاعية والدنيوية.

وفي مجرى عام 1187أستطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحقق بقواته، سلسلة معارك ظافرة، وأن يحرر منتصراً 52 مدينة وحصن بما في ذلك القدس، وإلى جانب بعض القلاع، فيما بقيت ثلاث مدن ساحلية محصنة وقوية بيد الصليبيين وهي: طرابلس، أنطاكية، صور. بسبب وضعها الجغرافي المناسب.

وبقدر ما كان ذلك ممكناً، كان موقف المسلمين وقادتهم كريماً عند احتلالهم القدس وفي تعاملهم مع الأسري والشخصيات المهمة، على عكس الفضاضة والوحشية القاسية التي كان غالباً ما يعامل به الصليبيون أسرى المسلمين، وهو السبب في الصورة الرومانسية لصلاح الدين في الأدب الأوربي.

ولكن الصليبيين والحملات الصليبية ظلت عنصراً مهماً في ملعب القوى السياسية في الشرق حتى زمن المماليك والعهد المغولي. وكان لانتصار صلاح

الـدين الأهميـة الحاسـمة في إطـار الـدفاع ضـد الاسـتعمار الاسـتيطاني وهجـوم نـبلاء الإقطـاع الأوربيين.

وبعد وفاة صلاح الدين عام 1193 الذي كان قد فقد عام 1191 المدينـة السـاحلية عكـا حيث احتلتها قوات الحملة الصليبية بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسـد، أسـتطاع أخـوه العـادل الاستفادة من حالة الشقاق والنزاع بين أبناء صلاح الدين واستغلالها من أجل استلام السـلطة في مصر وسورية وشمال بلاد النهرين. وكانت العلاقات بين الأيوبيين والصليبيين منتظمة عن طريق اتفاقيات منذ عام 1192، وكانت هـذه تضـم السـيطرة عـلى بعـض المـدن السـاحلية في سـورية وفلسطين.

وكان الملك العادل قد أهتم بشكل خاص بالعلاقات مع الدول الإيطاليـة في التجـارة مـع مصر، وتوجـب عـلى ولـده الـذي خلفـه في الحكـم، الملـك الكامـل 1218 ـ 1232 القتـال ضـد الصليبيين الذين زحفوا على الأراضي المصرية حتى مدينة دمياط الساحلية، ولكن الملـك الكامـل استطاع إبعاد الصليبيين عن مصر وفي عام 1229 أرغم على قبول طلب مـن البابـا بالتنـازل عـن القدس للملك الألماني فردريك الثاني بموجب اتفاقية سلام، كما عن شريط من الأراضي يصل حتى الساحل مقابل مساعدة قدمها الملك فردريك بدعم السلطة الأيوبية.

وبعد وفاة الكامل بدأ السقوط السريع للدولة الأيوبية، ودار صراع العائلـة على الإرث والموروث، وبـذلك فقـد لعـب الأتـراك مـن قـوات الحـرس دوراً هامـاً فيما يسمى بـدور المماليـك. وكـان كـل فـرد مـن الأيـوبيين يسـعى لكسـب أكـبر عــدد مــن المماليــك إلى جانبــه، وقــد أدى ذلــك إلى إضـعاف شــديد للســلطة

المركزية. فتمكن الملك الأيوبي الصالح عام 1244 وبمساعدة وحدات من الأتراك الخوارزميين، الذين كان المغول قد طردوهم إلى الغرب، تمكن بصورة نهائية وحاسمة من الاستيلاء على القدس من الصليبيين وكانت زوجته ذات الحيوية وولده إلى جانبه، ثم تمكنوا أيضا عام 1250 من طرد الصليبيين من دمياط التي كانوا قد احتلوها قبل عام(أي في 1249)، وكان قادة المماليك الممتازين قد بذلوا مساعيهم بصورة صريحة بهدف الاستيلاء على السلطة. وفي عام 1250 ظهر على المسرح السياسي في مصر عائلات من المماليك ذات نفوذ قوي، وكذلك في أجزاء أخرى من سوريا، وقد استمرت في الحكم والنفوذ حتى الاحتلال العثماني.

وكان التقدم الاقتصادي العام في أوربا في القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر، وتأسيس الجيوش الملكية في بلدان أوربا الغربية واشتداد النزعة العسكرية ـ الاستعمارية في التوسع باتجاه الشرق، من الأسباب الجوهرية للحملات الصليبية في الشرق. ولكن الحملات الصليبية كانت في ذات الوقت من الأسباب الجوهرية للتطور الاقتصادي السريع في أوربا لا سيما دول إيطاليا الشمالية.

أما بالنسبة لسكان المشرق العربي(وكذلك بالنسبة للبيزنطيين) كانت الحروب الصليبية تعني وقبل كل شيء المعارك، الخراب، الظلم والقمع، الخسائر الاقتصادية، والتأثير المستمر على الاقتصاد الأوربي والثقافي وكذلك كان التأثير على أنماط الحياة أمراً وارد الحدوث، فكانت هناك تأثيرات ثقافية كما لعبت أسبانيا وصقلية دور الوسيط في نقل تلك التأثيرات وأبعادها إلى أوربا.

وما كان السلاجقة قد بدأوا فيه، من تقوية العقائد الإسلامية السنية المتشددة، كان تحت تأثيرات الضرورة في تشكيل جبهة سياسية وأيديولوجية موحدة ضد الحملة الصليبية، فقاموا بقفزة جديدة إلى الأمام، هذه القفزة لم تؤد فقط إلى تأسيس مدارس عديدة متشددة حسب النموذج البغدادي له (النظامية) بل إلى جانب ما أجتهد به صلاح الدين في القاهرة وما زالت حتى اليوم شواخص على هذه الجهود.

المصادر

1 . Runciman، S. : Geschichte der Kreuzzüge . Bd، München 1957، S.274

تاريخ العرب منذ البدايات وحتى العصر الراهن فريق من المستشرقين برئاسة بروفسـور دكتور لوثر راتمان

Geschichte der Araber von den Anfängen bis zur Gegenwart

Autorenkollektiv unter Leitung von : Prof. Dr. Luther Ratmann

الجزء الأول Teil : 1 : الفصل 5 / مبحث 3: S.199 وحتى S. 209 / Berlin 1975

بروفسور. دكتور غيرهارد هوفمان Prof . Dr. Gerhard Hoffmann

مخطوطة مترجمة : د. ضرغام عبد اللـه الدباغ ص 182 وحتى صفحة190

ثامناً: الأنباء التاريخية المبكرة



المذبحة التى قام بها ريتشارد فى عكا عام 1490
Das Massaker in Akkon Richard schaut zu Hiniatur
im 1490

لوحة نادرة تظهر الإعدام الجماعي للمسلمين في عكا عام 1490

البروفسور دكتور مانفرد مولر Prof . Dr. Manfred Mülle

في اختيارنا لهذا المبحث من الفصل الأول من موسوعة تاريخ العرب، الـذي قـام بتأليفـه مجموعة من الأساتذة في جامعة لا يبزج بألمانيا، وهو من الأعمال التـي اسـتغرقت وقتـاً وجهـداً كبـيراً جـداً مـن أربعـة عشر مـن المسـتشرقين والأسـاتذة مـن اختصاصـات التـاريخ والفلسـفة والسياسة، وحدوا جهودهم بقيادة البروفسور دكتور لـوثر راتمـان، فـأنجزوا عـلى مـدى سـنوات طويلة امتدت لأكثر من عشرة سنوات في سبعة مجلدات، في عمل يمكن وصفه بالدقة والنزاهـة والأنصاف.

وقد وقع اختيارنا على انتخاب فصول من هذا العمل الموسوعي وتقديمه لقـراء العربيـة في إطار: كيف يرانا الغرب ..؟

ما يزال عدم الوضوح يكتنف حتى اليوم تاريخ العرب قبل الميلاد، لذلك فإننا سـوف لـن نتطرق هنا إلى الكثير من ذلـك، بـل إلى النقـاط الرئيسـية التـي تتضـمن المـؤشرات والتوجهـات التاريخية الأولى.

ويمكننا الانطلاق من الحقيقة: أن اللغة العربية والـلـهجات، أنما تعود في أصلها إلى عائلة اللغات السامية، ومنها نثبت ونقرر: أن كافة المجاميع السكانية التي تتحدث اللغة السامية، إنما كانت قد نزحت عبر العصور من براري وواحات شبه الجزيرة العربية إلى منـاطق المراعـي عـلى حافـات الأراضي الصـالحة للزراعـة في شـمال وشرق الصـحراء العربيـة السـورية. وهـذا التجـول والتحول من البداوة إلى التحضر والمدنية كانت، كما يشـهد بـذلك اهـتمام الكتـاب والمفكـرين، عبارة عن حركة مستمرة لا تعرف التوقف.

كانت هذه المجاميع تزحف من البوادي بصفة مستمرة على شكل من تحول سلمي، ولكن الأمر لم يكن يخلو بين الحين والآخر من تصادمات ذات طابع عنيف، بشكل شبه حربي، سواء في الصحراء العربية السورية أو في أرض ما بين النهرين القديمة. كما كانوا قد تمكنوا عبر العهود من تأسيس بعض المدن على سبيل المثال: أكد في 2000 ق.م في شمال بلاد النهرين، وبعد ذلك إلى الجنوب منها وبقيادة سرجون في عام 2340 ق.م حيث تأسست دولة أكد كأول مملكة سامية كبيرة، ثم أعقب ذلك في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد، العموريون والكنعانيون، وفي الثلث الأخير من القرن الثاني دولة الآراميون. وكان العرب آخر وأهم المجاميع التي نزحت وغادرت شبه الجزيرة العربية إلى مناطق الرعي والواحات الخصبة.

ومن الاستنتاجات العامة للمراحل المبكرة من تاريخ العرب، وعن الهجرات من شبه الجزيرة العربية، ما تسمح بتشخيص خصوصيات الحياة والأنماط الاقتصادية لعرب البوادي التي يمكن تميزها عن كافة البدو الساميين: حيث كانت مرحلة تأسيس الوجود لسكان البوادي في القرنين الثاني والثالث ق.م تتمثل في مجاميع رعي صغيرة، حيث دخل البدو الأعراب إلى دائرة الأضواء في التاريخ، وكانت حياتهم مرتبطة أساساً بتربية الجمال والحياة الرعوية.

والجمل ذو السنام الواحد الذي يعيش في شبه الجزيرة العربية ينتمي على الأرجح إلى صنف جمال البدو الأعراب التي استخدمها العرب منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، وأول ذكر واضح وجلي للجمل ذو السنام الواحد كحيوان يستخدم للامتطاء والتنقل، وجد في تقارير تتحدث عن أعراب اقتحموا أقواماً

في فلسطين. وقد حدث ذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

والجمل هو حيوان مهم في البرية والصحراء، وهو يتخذ من نباتات الصحراء الجافة مأكلاً له وكذلك من الحشائش ذات الحواف الحادة وحتى ذوات الإبر، والأغصان شبه الجافة ويشرب بقناعة المياه المالحة أو المرة، وهذا الحيوان القنوع يقدم كل ما تحتاجه حياة أعراب البوادي والصحاري من الضرورات في نقل البضائع إضافة إلى الحليب والوبر واللحوم والجلود والمواد المستعملة في الحرق(روث الإبل المجفف).

والجمال أيضاً وقبل كل شيء هي واسطة نقل وامتطاء لا تقدر قيمتها بالنسبة إلى بدو شبه الجزيرة العربية بسبب سرعتها وقدرتها العالية على التحمل وعلى قطع المسافات الصحراوية دون الحاجة إلى المياه. ومن خلال استخدام الجمال ذوات السنام الواحد(وهو الشائع في الصحاري والبوادي العربي)، توفرت الافتراضات الموضوعية للتوجه صوب مراع جديدة تتوفر فيها المياه وللاستدلال على مناطق غير تلك التي في وسط شبه الجزيرة العربية، وتحديد طرق المواصلات عبر واحات خصبة تتوفر فيها المياه.

إن المجاميع السامية من الرعاة البدو الأوائل، كانت تستخدم الحمير كواسطة نقل والحمل في مناطق الرعي بالقرب من مراكز المدن في بلاد ما بين النهرين. وكانت الإبل لها ميزة لا تقدر للبدو الأعراب في الصراعات الحربية وذلك فيما يتعلق بسعة دائرة حركتها. فقد مكنت تلك الإبل مستخدميها من الأعراب في تعدد الأغراض في الفعاليات الحربية وسهلت منها. وكما أنها كانت

توفر السرعة بالإضافة إلى أنها كانت تمثل حلقة الوصل، فقد كانوا يظهرون في الأماكن غير المتوقعة بشكل مباغت وكان ذلك يجعل من البدو المستخدمين للإبل مفزعين للأقوام المستقرة في إقامتها.

إن إلقاء نظرة على مسيرة التطور قبل التاريخ والتاريخ المبكر في شبه الجزيرة العربية ممكنة فقط من خلال الأبحاث الآثارية المنجزة حتى الآن، حول مسيرة وتقييم حالة السكان والهجرات والآثار الثقافية والأدبية لشبه الجزيرة، فهي المصدر الوحيد لذلك وإن كانت بمقاييس غير كافية.

إن الأبحاث الآثارية والتاريخية في شبه الجزيرة العربية تنحصر حتى الآن في الكرافيتي Graffiti (حروف المنقوشة على الصخر) التي لم يكن من السهل الحصول عليها، وهذه البقايا الآثارية التي تلقي الضوء على تاريخ تلك الفترة، فقد أثرت عليها رمال وعواصف مئات السنين وهي متروكة في العراء. وبالمقابل فإن التقنيات الحديثة ساعدت بمعطياتها الدقيقة حول مرحلة الهجرات حتى المراحل المبكرة من عصور الثقافة هي فقط في المناطق الشمالية على حافة المناطق المأهولة. كما وجدت في القرن الأخير في شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن المؤسف بشكل خاص أن لا يكون لدينا ما يدل حتى الآن في التنقيبات عن المراحل التاريخية المبكرة في شرق ووسط شبه الجزيرة العربية أو مستوطنات الواحات. وهكذا فإن تساؤلاً مهماً يبقى غامضاً عن التطور الاجتماعي في العصور المبكرة لشبه الجزيرة العربية. والمكتشفات في الأرض

تشير أن الجزيرة العربية كانت منذ العصور الحجرية مسكونة من قبل الصيادين والقوام المتجولة الباحثة عن ما يؤكل ويصطاد.

وتجدر الملاحظة أن الظروف الجوية وشروط الطقس كانت (إلى جانب ذلك) وحتى عام 10،000 عام قبل الميلاد مناسبة أكثر مما هي عليه في عصرنا الراهن، ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تمر فيه بالعصر الجليدي، كانت آسيا الوسطى وجنوبها تمر في عصر المطر، وكانت المرحلة التالية هي العبور إلى مرحلة الزراعة وتربية الحيوانات التي نطلق عليها اليوم مرحلة الثورة الزراعية وهي التي حطمت تدريجياً النظام الاجتماعي القديم من خلال مجتمع الطبقات.

وفي إطار شبه الجزيرة العربية، فقد جرت هذه العملية أولاً في جنوب شبه الجزيرة حيث تتوفر المرتفعات المثمرة، والتي وفرت شروطاً جغرافية / مناخية مناسبة للزراعة المعتمدة على المطر. والتطور التاريخي الهام في جنوب شبه الجزيرة العربية منذ بداية الهجرات، جعل الأراضي المرتفعة صالحة للزراعة، تكثفت لاحقاً باستخدام الوديان في الأراضي المرتفعة من خلال بناء مستلزمات الري(السدود) وإيجاد حلول للمعضلات التي ترافق هذه الفعاليات، ولكن عدم وجود مصادر دقيقة حوله، هي التي تمثل واحدة من أكثر فصول تاريخ العرب في عدم وضوحها على الإطلاق.

من الواضح والمؤكد، أن جنوب شبه الجزيرة العربية قد اكتسبت تطوراً متصاعداً نسبياً، وذلك واضح من خلال التكوين والتشكيل الثقافي في الجنوب وانعكاساته. وهناك ملاحظة أخرى تدل على ذلك، ويكمن في الاختلاف في

اللغة بين اللـهجات: عرب الشمال(التي تطورت فيما بعد إلى اللغة العربية الكلاسيكية) ولغة ولهجة عرب الجنوب.

وعن مرحلة تطور عرب البوادي(المستخدمين للجمال) في شمال شبه الجزيرة العربية وتشكل العصر المبكر للدول المعتمدة على الزراعة في جنوب شبه الجزيرة. وهنا لا توجد لدينا (مخطوطات) عربية، ولم ترد كلمة واحدة عن هذا الماضي في شهادات المؤرخين المعاصرين في البلدان الأكثر تطوراً ضمن تقاريرهم. وهكذا كان الأمر بالنسبة لبلاد الرافدين مثلاً العامرة بالسكان، وسورية وفلسطين التي كانتا على الأرجح أكثر تطوراً، فقد كان ذلك يعني أنها كانت غير مهمة سياسياً واقتصادياً بحيث أنها لم تترك أي اثر يدل على ذلك.

إن المعطيات الأولى المعاصرة التي قدمها الكتاب والمؤرخون عن المراحل المبكرة لتاريخ العرب، تعود في أصلها إلى الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد، فقد أرسلت آنذاك دولة سبأ في جنوب شبه الجزيرة قافلة من الجمال إلى فلسطين وسوريا مثلت التبادل التجاري المباشر مع البلدان الأكثر تطوراً ودخلت للمرة الأولى في تاريخ الرحلات بين الشعوب.

وفي نفس الوقت تشير رقم (ألواح طينية) آشورية عن الصدامات العسكرية الأولى مع عرب البوادي الشمالية من رعاة الإبل، وهنا تعرض لنا آثار مكتوب عليها باللغة العربية من أواسط القرن الأول قبل الميلاد، أما بالنسبة للنصف الأول للقرن الأول ق.م، فإننا نعتمد على مصادر غير غربية، فالأمر يدور هنا عن الكتابات والمصادر غير العربية لبعض المعطيات الواردة في الوصايا العبرية القديمة، وبشكل رئيسي في مصادر الخابور باللغة الآشورية والبابلية.

والأخبار الموثقة بالكتابات دعمت بواسطة الصحائف المصورة في القصور الآشورية الملكية، هذه النقوش تقدم ليس فقط الأنباء المصورة للمعارك الحربية للملوك الآشوريين ضد الأعراق العربية فحسب، بل أنها تعرض ما لم تقدمه المخطوطات المكتوبة من صور مهمة لأشكال الملابس والتسليح والمعدات الحربية لعرب البوادي في ذلك الوقت.

وإذا أردنا أن نبحث بشكل اعتيادي في معطيات هذه المصادر التاريخية عن تاريخ العرب في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، والتقييم من خلال هذه الصور عن المعارك، فمن خلال هذه المصادر علينا إعادة كتابة تاريخ العرب لتلك الحقبة(النصف الأول من القرن الأول ق.م) مع ملاحظة أمرين:

أولاً: أن هذه التقارير والأخبار المستقاة من المصادر الآشورية/ البابلية والعبرية لا تحتل اهتماماً تاريخياً من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية عند العرب وأسلافهم، بل أنها تكاد تقتصر على الاتصالات المباشرة، وعلى الأغلب الصدامات العسكرية منها مع العرب وما أعقب ذلك.

ثانياً: إن كل الأخبار حول الأعراب البدو من رعاة الإبل هي من منظور البلدان الأكثر تطوراً والآهلة بالسكان، والتي هي ليست واقعية عن حياة العرب القاطنين في البوادي ولا تضم إلا الضئيل من المعطيات الجغرافية عن المناطق التي كان العرب يقطنوها. وهناك أيضاً الكثير من ذلك في الوثائق اليونانية واللاتينية اللاحقة.

وعن الدول العربية في جنوب شبه الجزيرة العربيـة، فهنـاك عـدا المصـادر العربيـة عـن مرحلة النصف الأول للقرن الأول ق.م، هناك فقط المعلومات عـن إمبراطوريـة سـبأ. وللسـبئيين خلال هذه الحقبة (بشكل واضح) الدور الأساسي في التجارة البعيدة المدى، تجارة القوافـل فـيما يدعى (طريق البخور المقدس) المار على امتداد الواحات العربيـة الغربيـة إلى غـزة عـلى البحـر المتوسط. ويحتمل أن تكون إمبراطورية سبأ قد مارست احتكار التجـارة البعيـدة المـدى للسـلع والبضائع العربية الجنوبية التي تتـألف مـن: البخـور، المـر Myrrh، الـذهب، الأحجـار الكريمـة، التوابل.

ومما يدل على تامين هذه التجارة البعيدة المدى، هو ما ورد في الكتاب المقدس (الفصـل العاشر) إذ تحدث عن زيارة ملكة سبأ للملك سليمان (926 ـ 965 ق.م) وهذا يعني بأن المقطع الأخير من طريق البخور المقدس كان يمـر مـن منطقـة تقـع آنـذاك تحـت سـيطرة إمبراطوريـة سليمان، وهو (شخصياً كما نعرف) الذي كان يسعى إلى مكتسبات في التجارة بين الدول ويسعى لاحتكارهــا في مملكتــه. ومــن أجــل ذلــك فقــد مــنح ســبأ مقتضــيات التفــاهم والاتفــاق معه(سليمان)ليكافئ دولة سبأ، وقد شاع أمر الهدايا من الـذهب والأحجـار الكريمـة التـي هـي سلع عربية جنوبية تقليدية. كما نجـح سـليمان في محاولاتـه التـي بـذلها في إرسـال مبعوثـاً إلى الفينيقيين مع مساعدات في أسطول تجاري أبحر إلى خليج العقبة متوجهاً إلى بلاد الذهب أوفيرا Ophira التي ربما تقع عـلى السـواحل العربيـة الغربيـة، لتأسـس علاقـات تجاريـة مبـاشرة مـع الجنوب العربي وبذلك بدأت التجارة العربيـة البعيـدة المـدى واحتكـار تصـديرها مـن الجنـوب العربي للسلع والبضائع التي ربما كانت سبباً أضافياً لدولة سبأ من أجل تـأمين قوافلهـا التجاريـة عبر إقامة العلاقات والهدايا.

وقد عاد ذكر السبأيين مرة أخرى في كتابات(رقم طينية محفورة على الصلصال والطين) الملك الآشوري تيغلات بيليسار الثالث Tiglat Pilesar 111 و الملك سرجون الثاني Sargon 11 على أثر التقارير الحربية للعام 720/732 وتحت قيادة الملك الآشوري تيغلات بيليسار الذي كان على صلة بستة أقوام (عشائر أو قبائل) من العرب من سكنة الواحات الذي كان على صلة بستة أقوام(قبائل) من العرب من سكنة الواحات الذي لا يعرف أحد قدم سكناهم. وفي كتابات سرجون ظهرت حتى أسماء ملوك سبأ، وهنا يستحق الملاحظة، إذ لا يحتمل أن تكون هناك مصادمات عسكرية مع هذه الدولة الجنوبية البعيدة، ومن هنا ففي ذلك دلالة يفهم منها أن العلاقات التجارية كانت هي الأساس كما في علاقات سبأ بدولة الملك سليمان.

ويدعم هذا الافتراض ورود أسماء السبأيين في سقوط الدولة الفلسطينية، واحتلال غزة من قبل الآشوريين لكونها محطة هامة في طريق البخور المقدس، وهذا يدل على أن دول سبأ كانت تسعى على إقامة علاقات طيبة مع الملوك الذين خلفوا سرجون، وتدل على ذلك تتبادل هدايا وضعت في حجر أساس المعبد كاريبيل Karibil في حوالي عام 685 ق.م في عهد سنحاريب، والهدايا هي من الذهب والتوابل والأحجار الكريمة.

إن مصادر الآثار في الخابور(الرقم المكتوبة) تبدأ بملاحظة قصيرة فيما يخص عرب البوادي الشمالية، إن عربياً اسمه جنديبو Gindibu كان في عام 853 قد دعم ائتلاف أمراء سوريين وفلسطينيين في القتال ضد شلمنصر الثالث الآشوري في معركة قرب قراقر Qrager في منطقة أورانتس Orantes شمال

سريا، بقوات بلغ تعدادها ألف فارس على الجمال. وشلمنصر، أو بالأحرى كتاب بلاطه الذين لم يمنحوا أهمية كبيرة لمساعدة الفرسان العرب، إذ لم تظهر أنباء أخرى عن هذه المساهمة في المراحل الختامية لهذه المعارك.

وبعد 200 عام فقط، كانت الظروف والأوضاع قد تغيرت بشكل كبير. فقد بدأت أنباء الصدمات العسكرية مع العرب تحتل مجالاً أوسع في كتب التاريخ، وفي سير الملوك الآشوريين المهمين. بل أن منجماً في بلاط أحد الملوك أخذ يهدئ من مخاوف الملك اسرحدون من فعاليات عسكرية للعرب الشماليين من سكان البوادي وفرسان الجمال بإعطائه تكهنات (قراءة في التنجيم) من أن خسوف القمر الكلي في 27 كانون الأول وحتى 28 منه لعام 670 ق.م سيكون مشئوما ليس فقط للأعداء التقليديين لدولة الآشوريين في سوريا ولبلاد النهرين الجنوبية فحسب، ولكن أيضا " للملوك العرب ".

ومن عام 540 حتى 550 ترك آخر ملوك بابل، وهو الملك نابونيد Nabunid قصره ومقر إقامته بمدينة بابل وأتجه إلى العرب المقيمين في الواحات الغربية تيماء Taima، وهذه الحقائق القليلة تكفي للتثبت بأن العرب الشماليين كانوا في القرون الثلاثة الأولى، ومن خلال الكتابات والرقم والآثار، في عملية تطور أدت في غضون قرون قليلة إلى تأسيس دول عربية شمالية مهمة، وترشح تدريجي للعرب إلى الشمال. وبدون أن ننظر إلى جميع هذه المعطيات مجتمعة، فإننا سوف لن نتمكن من فهم أحداث فترة الإمبراطورية الآشورية المهمة.

وبصورة مشابهة لما حدث مع شلمنصر، حدث أيضا مع الملك تيغلات بيليسار الثالث 727ــ 745 وسرجون 705 ـ 722 ق.م وأن العرب موجودون

دائماً في المصادر الرسمية وفي المعارك باتجاه سورية، حيث قامت الملكة العربيـة زبيبـة Zabibe بخلع وكيل الملك الآشوري، والملكة التي أعقبتهـا شـمسي Samsi التـي قامـت بعـد ذلـك بقليـل بدعم واضح وعلني لثورة ملك دمشق ضد الملك الآشوري.

وبعد الملك تيغلات بيليسار ومن ثم سرجون، فإن ملوكاً آخرين قاموا باحتلال غـزة مـرة أخرى حيث ينتهي طريف البخور المقدس، وكان يعمل في هذا الطريق المزدهر لقوافل التجـارة البعيدة المدى عدا السبأيون، العرب أيضاً من غرب وشمال شـبه الجزيـرة مـن سـكان الواحـات ومن تجار الواحات مع الآشوريين.

ومن أنباء معارك سنحاريب، تبرز أنباء العرب لأول مرة في بابل: وكان أحد أخـوة الملكـة جاتي Jatie، على صلة وثيقة بين العرب وبين الملك البابلي مردوك ـ أبلا يـددين Marduk ــ apla ـ iddin، حيث طلب منهم المساعدة ضد سنحاريب الذي أنتصر عليه في النهاية وتمكن من أخـذه أسيرا، وبعد سنوات قليلـة أحتاجـت بابـل مـن جديـد إلى المسـاعدة العسـكرية مـن العـرب في صراعها ضد الآشوريين، وفي هذه المرة أرسل سنحاريب قوات لمعاقبة أعداءه مـن العـرب حيـث يقطنون في البوادي، وهؤلاء تركوا الآشـوريين يقتربـون بقـواتهم ثـم بـدؤا مناوشـاتهم ومـن ثـم ألتجأوا إلى المدينة المحصنة الدومات Adummatu وهذه المدينـة كـما تـرد في التقـارير أصـبحت مقراً لإقامتهم. وفي مواقع أخرى، هناك تقارير عن محاصرة العرب في هـذه المدينـة بعـد بضـعة سنوات.

والدومات هذه هي الجوف Gof وهي تقع في منطقة زراعية خصبة بين الصحراء الكبرى النفوذ Nefud وبداية وادي السرحان، وهو وادي كـان إلى وقـت قريـب الطريـق الأكـثر أهميـة للربط بين سوريا والمرتفعات الداخلية الشمالية من القيدار Qedar، وأن أمراء القيـدار في الآثـار (الكتابيـة) الآشـورية يسـمون "ملـوك العـرب" وكـان هـؤلاء يمارسـون نفـوذاً عاليـاً عـلى الأقوام(القبائل) العربية في الصحراء العربية السورية.

وبعـد تهـديم مدينـة الـدومات وسـلبها ونهبهـا عـلى أيـدي القـوات الآشـورية في عهـد سنحاريب، أعقب ذلك بضعة سنوات من الهـدوء. والأمـراء مـن قيـدار هازيـل el،Haza وولـده وخلفه جاوتا Jauta ولاحقاً عويطة Uaite ، الـذي خضـع للآشـورين. والملـك جواتـا طلـب مـنهم المساعدة بالسلاح ضد منافسيه الذين كانوا قد نجحوا في استنهاض كافة أعراب البادية الشمالية ضده. وفي السنوات التي تلت ذلك، بدا وكأن الملك جواتا، كان قـد بسـط سـلطانه عـلى منـاطق الصحراء العربية / السورية.

وعندما ساءت لاحقاً العلاقات بين الملك الآشوري أشور بانيبال، وأخوه شمس شوم أوكين Samas - sum – ukin ملك بابل، أعتقد جواتا أن ساعته قد حانت لأن يسـتعيد الاسـتقلال الـذي كان قد فقده، فهب ليقف إلى جانب الملك البابلي بعـد أن اسـتفحل الخـلاف بينـه وبـين آشـور بانيبال. وفي عام 652 ق.م تقدم العرب بقوات في ثلاثـة مجـاميع مـن الجيـوش ضـد الآشـوريين وحلفائهم.

وكانت سورية هي موقع المعارك الطبيعي للعـرب. وفي الحـرب أحـتفظ جواتـا شخصـياً بقيـادة القـوات. وفي مجـرى القتـال، هـب القسـم الثالـث مـن القـوات

العربية بقيادة الأخ أبياتا Abjate وأياموAjamu مسرعاً نحو بابل من أجل تأكيد التزامات التحالف ولدعم شمش شموكين ضد الآشوريين الذي تمكنوا بهجوم مقابل من ألحاق الهزيمة بالعرب وأرغموهم على العودة إلى مدينة بابل حيث تم حصارهم مع البقية الباقية من الجيوش البابلية. وبهجوم ضاري ودموي، تمكن العرب من خرق الحصار والخروج من المدينة على الرغم من أنهم تكبدوا الكثير من الخسائر. وفي غضون ذلك، كان القيدار من العرب، من سوريا ومواب Moab تلاحقهم جيوش الآشوريين إلى مناطق سكناهم التقليدية في البوادي، ثم وكحل مؤقت، فقد تنازل أشور بانيبال أخاه بيجان الذي كان قد التجأ إليه، بدلاً من الأمير المتوقع جواتا كملك على القيدار، كما توجب على القيداريين الالتزام بالإخلاص في احتفال مقدس، بالإخلاص والوفاء الأبدي للآشوريين والتعامل مع جواتا كعدو هارب.

لم تخب مساعي عرب الشمال نحو الاستقلال من خلال هذه الإحباطات، بل على العكس: فبعد سنوات قليلة وعندما هزم الجيش الآشوري في عيلام، انتفضت كافة الأعراب الشمالية ضد الآشوريين، حتى أولئك الذين كانوا في الماضي يفضلون انتظار الفرصة الملائمة. وبسبب التنافس القديم بين الأقوام(القبائل) المختلفة، لم يكن بالإمكان اتخاذ فعاليات موحدة لكل العرب، وكان لذلك نتائج خطيرة مؤثرة سلباً. فإن الجيش الآشوري رغم هزيمته في عيلام لم يجد الصعوبة في ضرب المجاميع العربية واحدة أثر الأخرى منفرداً بكل جماعة على حده، وهكذا فإن الثورة العربية الثانية الكبيرة انتهت على نحو دموي فضيع، وقد أخذ الآشوريون معهم أعداداً غفيرة من الأسرى، كما استولوا على أعداد هائلة من الجمال.

وكانت سياسية الآشوريين حيال العرب تتمثل بجعلهم يؤمنون طرق المواصلات المؤدية إلى سوريا وفلسطين(المارة عبر أراضيهم) وحماية المقاطعات الآشورية والملوك الصغار الخاضعين لسلطة الآشوريين ودعمهم في هجمات العرب عليهم. كما كانت تفرقة العرب واحدة من أهدافهم ببث أسباب الصراعات بينهم وإبقائهم بعيدين في البراري. وقد سعى الآشوريين بالدرجة الأولى لتحقيق هذه الأهداف بالوسائل السياسية والدبلوماسية وكذلك بواسطة الحملات والغزوات بين الحين والآخر لتخويف العرب وإرغامهم على الأنظواء تحت سيادة وسلطان الآشوريين، وأيضا في تنصيب بعض المخلصين للسيادة الآشورية كقادة على القبائل بدلاً في إقامة سيادة عسكرية آشورية دائمية على الصحاري المترامية الأطراف ومناطق البوادي المحيطة بها في شمال شبه الجزيرة العربية وقد استخدموا لذلك ثلاثة أساليب رئيسية:

أولاً: ربط العرب وقادتهم من خلال قسم الإخلاص للآشوريين وعبر اتفاقيات أضافية إلى جانب التزام الأخلاق والولاء. وقد أعاد الآشوريون إلى العرب ما سلبوه منهم في الغزوات السابقة.

ثانياً: مفاوضة العرب على نهج يؤدي إلى تفرقتهم.

ثالثاً: مراقبة وحراسة قادة الأقوام العربية من خلال فرض موظفين آشوريين رسميين ومستشارين، أو من خلال مبعوثين والاستطلاع عبر الجواسيس.

أما الضرائب التي فرضت عليهم فقد كانت ضئيلة نسبياً، والعرب لم يظهروا إلا نادراً، الرغبة في الحراسة وتقديم المساعدات بالقوات العسكرية أو الجمال التي تستخدم للمواصلات والآشوريون أيضاً لم يرغموهم عليها.

وكان عهد المملكة البابلية الجديدة 539؟ 626، عهداً مزدهراً للتجارة البابلية مع جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية. وقد قام أعراب الواحات الغربيـة (تـيماء) بأفضـل مـا يكـون عليـه التاجر، بدور الوسيط التجاري. وقد لعبت الاعتبارات الاقتصادية دوراً مهماً في ذلـك، ففـي عـام 550ق.م وعندما حاول نابونيد كأول زعيم عربي خارج الدول الكبيرة، أن يأخذ على عاتقه القيام بمحاولة لضم وإلحاق الأجزاء العربية إلى مملكته.

ففي البدء قام بالاستيلاء على تيماء، ومن هناك إلى أهم تجمعات الواحات في غرب شبه الجزيرة العربية ومنها ديدان Dedan وأولى Ula وخيبر ويثرب(المدينة) وبذلك فأنه قـد جمـع في يديه وتحت سلطانه كافة طرق التجارة المزدهرة مـع الجنـوب العـربي، وبالإمكـان معرفـة مـاذا كانت تعني ذلك لنابونيد عندما أتخذ من تيماء مقراً له لمدة عشر سنوات، كما أنه حمـل وكيـل ملك بابل الإدارة البابلية.

ومن خلال التهديد الذي مثله الفرس الذين كان نفوذهم بأزديـاد، وجـد نابونيـد نفسـه مضطراً إلى التراجع. ولكن بعد مضي عام واحد تقدم كيروس Kyros نحو بابل، وانشغل البابليون بالعدو الجديد، ووجدوا الفرصة للتخلص من تبعيتهم لبابل.

وفي أنماط الحياة، لم يختلف أعـراب البـوادي عـما كـانوا عليـه في القـرن الأول قبل الميلاد عـنهم في القـرون الماضـية، والمسـالة الرئيسـية كانـت الحيـاة القاسـية في الصحاري والبوادي في شبه الجزيرة العربيـة. وتمثـل الجـمال وكـذلك الأغنـام والمـاعز دوراً مهـماً إلى جانـب الحمـير كـثروة حيوانيـة في المنـاطق الصـالحة للزراعـة.

فعلى سبيل المثال، كانت الأبقار تربى في منطقـة الجـوف، وكـان سـكان البـوادي(كـما هـم الآن) يرتحلون مع قطعانهم وخيامهم وسائر حاجاتهم وما يملكون إلى حيث تهطل أمطار الشتاء. عـبر البادية المخضرة المعشوشبة، وعلى الأغلب في مجاميع صغيرة من منطقة رعي إلى منطقـة رعـي أخرى. ومن ثم لاحقاً في وقـت الصـيف يتجمعـون بـالقرب مـن مصـدر للميـاه وهـم يشـكلون تقريباً قبيلة ذات نظام أشبه ما يكون بالتعاونية.

ولم يكن بروز اتحاد محلي لعدة قبائل بقيادة زعيم واحد يستغرق وقتاً طويلاً إلا نـادراً، وعلى رأس القبيلة(مختلفاً عن التطور اللاحق) كانت النسـاء يمارسـن جـوراً في مراسـيم العبـادة وهذه تعلمنها مـن الآشـوريين الـذين لم يكونـوا ينصـبون الملكـات فحسـب، بـل والكاهنـات في المعابد أيضاً.

وسكان الواحات كانوا يشتغلون في الزراعة وكذلك في أسـاليب العنايـة بأشـجار النخيـل. وكان سكان الواحات الغربية قد أبتدؤا بجني الأربـاح لـيس فقـط مـن عوائـد التجـارة البعيـدة المدى، بل بما يقومون به مـن فعاليـات زراعيـة، كـما أدى ذلـك إلى تقويـة الـروابط والعلاقـات الاقتصادية بين سكان واحات الصـحراء وأهـل الباديـة القائمـة عـلى المبادلـة، الأمـر الـذي وحـد أهدافهم وآمالهم السياسية أيضاً.

وفي مجرى النصف الأول من القرن الأول ق.م كان سـكان البـوادي العـرب يكتسبون على هذا النحو أهميـة متزايـدة. وكـان هـذا واضـحاً للعيـان في الصراع اللاحق مع سكان ودول المـدن في منـاطق العمـق. وكانـت بـدايات هـذا الصراع تتمثـل بغـزوات مـن عـرب البـوادي إلى المـدن في العمـق مـن أجـل الحصـول

على غنائم أو مكتسبات محلية. أما في المراحل اللاحقة فقد شارك الأعراب من قبائل مختلفة في فعاليات عسكرية كبيرة سواء في دول : فلسطين / سوريا/ بلاد النهرين، مع أنهم لم يحصلوا على شيء من هذه المرحلة، فما زالت المناطق تحت السيطرة الدائمية أو المباشرة لحكومات تلك الدول ولم تتخلى عن سيادتها بعد.

المصادر

بروفسور، دكتور مانفرد مولر . Prof. Dr. Manfred Müller

الفصل الأول من موسعة تاريخ العرب.Geschichte der Araber Teil 1

الجزر الأول: برلين / 1975 Berlin 1975

ص 1 حتى ص 14 S.1 - 19 Kap. 1

عاشراً: ازدهار العلوم والثقافة / العصر العباسي

بروفسور.د. غيرهارد هوفمان Prof. Dr. Gerhard Hoffmann

كانت الفترة من القرن الثامن حتى القرن العاشر زاخرة بشواهد الازدهار العالي للعلوم والثقافة في الإمبراطورية العباسية حتى بعد سقوطها السياسي وتجزئتها إلي عدة كيانات إقطاعية، ولكن تأثيراتها على التطور الثقافي في أوربا أستمر حتى آخر العصور الوسطى. وقد ساهم في هذه الفترة الثقافية الزاهرة جميع الشعوب المنطوية تحت الخلافة العباسية، وبالدرجة الرئيسية، العرب ثم الفرس الذين ارتبطوا بحروف اللغة العربية والقسم الأعظم منهم بالسلام وكان ارتباطهم قوياً " وشعوب الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط الذين ورثوا وبدرجات عالية، التقاليد الثقافية للشرق والآثار الكلاسيكية وهم يحوزون تجربة روحية، الأمر الذي ساهم في تطور الثقافة في عهد الخلفاء بصرف النظر إن كانت هذه الشعوب عربية، أو أنها كانت قد احتفظت بلغتها وعرقها".[(1)]

وكان الموالي (المسلمين من غير العرب) قد سعوا من أجل المساواة السياسية والاجتماعية في عهد الخلافة، وبنفس الوقت، حاول الفرس في هذا المجال من خلال الأدب الشعوبي. وبحسب أحكام القرآن "49:12 ـ سورة الحجرات" حيث كان الرسول يساوي بين كافة المسلمين سواء كانوا عرباً أو غير عرب، وحاول الفرس قبل غيرهم من الموالي أن يكسروا إحتكار العرب للميدان الثقافي مع أنهم في ذلك الصراع الروحي للفرس، المسلمين منهم بالدرجة الأولى، كانوا يمسون الثقافة الإيرانية القديمة. وهنا لا يمكن الحديث عن

حركة ثقافية وطنية فارسية، فقد كان الهدف الأوحد هو : المساواة في الحياة الثقافيـة في إطـار الإسلام واستخدام اللغة العربية بفاعلية.

وكانت الشروط مـن أجـل تحقيـق تقـدم أو ازدهـار عـام، علمـي أو ثقـافي، في العصـور العباسية المبكرة مناسبة، وكان المستوى المرتفـع للزراعـة ونظـم الـري بصـورة خاصـة، والخـزف والمصنوعات اليدوية متطوراً، وكـذلك الأبعـاد الهائلـة التـي بلغتهـا التجـارة البعيـد المـدى، أمـا المتطلبات الدينية كالتوجه إلى مكة أثناء الصلاة، فقـد تطلـب هـذا تطـوراً في العلـوم الطبيعيـة وبدرجة رئيسية للرياضيات وعلـم الفلـك، الكيميـاء والجغرافيـة، ولـيس أخـيراً، فتحـت الحيـاة المرفهة للفئات العليا الواسعة المجال لتقدم الطب وفن المعمار والأدب والشعر والموسيقى. كـما أن الصراع بين المـدارس الدينيـة قـاد إلى ازدهـار في الفلسـفة. ولكـن وكـما مـر علينـا قـد أنـتج المتشـددين الإسـلاميين اللاهـوتيين وعلـم الفقـه. إن التعامـل مـع العلاقـات السياسـية الدينيـة والاجتماعية للماضي والحاضر، كان الأساس في تطور سريع في مجالات الجغرافية والتاريخ والبناء العام للآداب وكذلك في الـرد عـلى الحركـة الشـعوبية وفي اسـتمرار التطـور في القواعـد العربيـة الكلاسيكية والفلسفة.

وكانت كل المدن الكبيرة في الإمبراطورية مركزاً للحيـاة الروحيـة ولا سـيما شـمال بغـداد حيث شـيد الخليفـة عـام الخليفـة 830 المـأمون هنـاك بيـت الحكمـة كموقـع مركـزي لإعـمال الترجمة. وكان ذلك مرتبطاً بمكتبة ضخمة كانت قـد أقيمـت ضـمن المشروع. وإلى جانـب بيـت الحكمة كان هناك أعداد كبيرة مـن المراصـد والمستشـفيات التـي كانـت بـنفس الوقـت مراكـزاً للتعليم والبحث يعمل فيها عـدد كبـير طـلاب العلـم والأسـاتذة، مـن جميـع القوميـات. وكـان يسـاهم في الجوامـع التـي كانـت عـلى الأغلـب تضـم المكتبـات، معلمـون مشـهورون في إلقـاء

المحاضرات على الأوساط المتعلمة من السكان، وسرعان ما أسس أبناء الفئات الثرية منتدىً أدبياً(مجلس الأدب)، كما حازوا على المكتبات الخاصة. ومع التوسع في إنتاج الورق، شهدت أعمال الكتب والمخطوطات قفزة مهمة في الأتساع، إذ كانت مدينة بغداد لوحدها تضم 100 محل لبيع الكتب.

والتطور الحقيقي في تفتح الثقافة العربية ـ الإسلامية، لا سيما في ميادين العلوم الطبيعية والفلسفة كان في عهد المأمون، لا سيما في أعمال الترجمة الهندية والفارسية، بالدرجة الأولى، وكذلك الأعمال اليونانية.

وساهم في ذلك سوريون من المسيحيين النساطرة ويهود وأفراد من ديانات أخرى. وقام العديد من الأساتذة من بينهم الطبيب إسحاق بن حنين في أديسا، حران، أنطاكية، الإسكندرية، وفي عدد كبير من الأديرة السورية وفي بلاد النهرين، بترجمة أعمالاً من اليونانية في العلوم الطبيعية والفلسفة مثل: كالين Galen، هيبوقراط Hippokrates وبطليموس Ptolemaus وأويكليد Euklid وأرخميدس Archmedes وأرسطوطاليس Aristoteles وأفلاطون Platon، وهم بذلك وضعوا الأساس في إدخال وحفظ هذا الإرث القديم في الشرق الإسلامي وبالتالي في إيصاله إلى المدرسة الأوربية في العصور الوسطى . ولم يقتصر دور الأساتذة الشرقيون في الإيصال السلبي للإرث الثقافي القديم إلى أوربا، بل ساهموا مساهمات جوهرية في تطوير تلك العلوم إلى مستوى أعلى، سواء كعلوم أو كتطبيق. وفي مجال الطب والعلوم الصيدلية الأوائل قد تم أعدادهم وكذلك الأطباء في المدن الكبرى، ومنذ القرن العاشر كان عليهم اجتياز الاختبار، وبذلك تم أبعاد الدجالين ممن يدعون مهنة الطب. وقد تأسس في بغداد في عهد هرون الرشيد أول مستشفى، وسرعان ما أرتفع العدد إلى 34

مستشفى في البلاد الإسلامية. وكان أحد أشهر الأطباء، كيمياوياً وفيلسوفاً بنفس الوقت، وكان متديناً عقلانياً وهو الطبيب الفارسي الرازي (865 ـ 925) وعنه نقل إلى أوربا أعمالاً حول الكيمياء وأيضاً كتاباً عن الجدري والحصبة في ترجمته إلى اللاتينية عام 1565 وتقارير طبية عن الجدري في مؤلفة الرئيسي (الحاوي Al Hawi) وهو خلاصة لعلوم طبية يونانية وفارسية وهندية وعربية، ثم ظهر كتاب في أوربا على أساس أبحاث الرازي باللغة اللاتينية، ترجم عام 1279، ومنذ عام 1486 صدر بعدة طبعات في أوربا.

وكان الرازي معلماً موسوعياً في العلوم، ثم ظهر أبن سينا وهو عالم في الطب والفلسفة من أصل فارسي، ويسمى باللاتينية أفسينا Avicenna (980 ـ 1037) ومؤلفه "قانون الطب" وهو كتاب رائع في العلوم الطبية اليونانية ـ العربية، وقد صدر من الكتاب خمسة عشر طبعة لاتينية في العصور الوسطى في أوربا وكان قانون الطب كتاباً رئيسياً في علوم الطب حتى القرن السابع عشر.

وكانت مساهمة الفلكيين الشرقيين أصيلة في علوم الفلك والرياضيات، كما كان هناك العديد من المراصد المجهزة بالإسطرلابات التي تعمل على مبدأ ربع الدائرة(وهو جهاز لقياس ارتفاع النجوم) مع ساعات شمسية وكرة أرضية. وتوصل الفلكيون المسلمون في عهد الخليفة المأمون، إلى كروية الأرض، ودونوا قائمة بإرتفاعات النجوم المعقدة التي ثبتها العالم الخوارزمي (680 ـ 850) ثم جاءت عبر أسبانيا إلى أوربا حيث ترجمت في عام 1126 على اللاتينية، ومجموعة من العلماء الفلكيين الأفذاذ تابعوا ذلك، حتى جاء العالم الرياضيات الفارسي والشاعر العبقري عمر الخيام (1033 ـ 1123) وهو الذي أنشأ تقويماً أدق من تقويم غيوغوري.

والخوارزمي الذي عمل أيضاً في الجبر، ونظام الأعداد الهندي ذو الصفر(ومنها اشتق في اللغة الألمانية Ziffer أي الأرقام، وفي اللغة الفرنسية Zero) وكذلك ما عرف في أوربا باللوغاريتمات العربية التي هي من عمل الخوارزمي، وبدورها وصلت إلى أوربا، وترجمت أعماله إلى اللاتينية في القرن 12 وظل حتى القرن السادس عشر أهم كتاب في تدريس الرياضيات في الجامعات الأوربية.

والأعمال الرئيسية في الكيمياء للعالم الكبير جابر بن حيان(الكيمياء) وهو مؤلف عام 770 ويتضمن ما توصل إليه هذا العالم في الدرجة الأولى من النتائج العملية للتجارب. فهو يقدم مساهمة مهمة في عرض مواد جديدة والحوامض والكحول Al Kohol وإلى جانب ذلك فقد تمكنوا من تحسين صناعة الميزان من اجل وزن دقيق، ثم صنعوا أول جهاز للتقطير.

وهناك معارف أخرى جمعها هؤلاء الأساتذة أيضاً في علم البصريات حيث أثبت العالم ابن الهيثم(في اللاتينية الحسن Al Hazan المتوفي عام 1059) أن العين تؤدي واجبات العدسات، وأثبت ذلك علمياً.

وفي مجال الفيزياء الجغرافية نجح العالم الخوارزمي مع تسعة وستين على أساس ما كان قد توصل إليه بطليموس من تخطيط الخارطة الإسلامية الأولى للعالم والأفلاك، وقد استخدمها الجغرافيون الشرقيون كأساس حتى القرن الرابع عشر.

ومن خلال التوسع الكبير للإمبراطورية وازدهار تجارتها البعيدة المدى، فقد تطور إلى جانب ذلك فرعان من الأدب الجغرافي، وبدرجة مهمة: الأول منها كانت كتب الأشعار العملية، فهي إلى جانب كونها وصفاً طبوغرافياً(وصف طبيعة الأرض والتضاريس وأبعاد الثابت منها على الخارطة ـ المترجم) فأنها تضم أيضا وصفاً اقتصادياً واجتماعياً، وقد عاينها مؤلفوها، على سبيل المثال اليعقوبي(المتوفي عام 897) في ولايات الخلافة، والثانية كانت الأعمال الجغرافية المنظمة كأعمال ألمقدسي(مولود عام 946) التي ظهرت في عهد الغزو المغولي الأول في المعجم الجغرافي لياقوت(1179ــ 1229) وكانت بذلك نقطة الذروة. وهذه الأعمال الكثيرة في مجالات التاريخ، الاجتماع والثقافة التي تضم معلومات مفصلة.

وعلى صعيد علم التاريخ، بدأ المسلمون بكتابة السيرة، التي تضم سيرة حياة الرسول محمد (ص) كابن إسحاق المتوفي عام 767، وأبن هشام المتوفي عام 834، وأبناء الفتوحات الأولى للعرب الواقدي (المتوفي عام 822) والمؤرخ البلاذري (المتوفي عام 892) مع وصف منتظم للفتوحات العربية. وكانت هذه المرحلة الجديدة في كتابة التاريخ هي مشخصة من خلال ظهور أعمال بأجزاء متعددة عن تاريخ العالم، وكان مؤلفوها يكتبون تقاليد وسير متفاوتة، وعلم الإنسان، وغالباً ما تكون نموذج وسياق، تجميع الأحاديث، التأكد من مصداقية الأحداث. ومن المؤرخين البارزين في هذا الاتجاه: ابن قتيبة (المتوفي عام 889)، والدينوري(المتوفي عام 895) وكذلك اليعقوبي الذي اشتهر كجغرافي أيضا، وهناك المؤرخ المشهور، وأستاذ طريقة كتابة التاريخ على حسب تسلسل السنين، الطبري (8383ــ 923) الذي في إطلاعه الواسع على تاريخ العالم وأسلوبه في

تتبعه لأحداث التاريخ بطريقـة الكرونولـوجي Chronologie (كتابـة التـاريخ حسـب تسلسـلها الزمني ـ المترجم) قد أصبح مثالاً في هذا الأسلوب.

أما المسعودي "هـيرودوت العـرب" المتـوفي عـام 956 فقـد أنـتهج نهجـاً آخـر في أعـمال الموسوعية التاريخية ـ الجغرافيـة: فهـو قـد جعـل الأحـداث التاريخيـة في مجموعهـا، في تطـور العوائل والأسر والشعوب، ثم جاء من بعده ابن خلدون العربي الأكثر أصالة، فيلسـوف التـاريخ، وأحد أعظم المفكرين في العصور الوسطى، الذي تابع عمل المسعودي.

والجهود من أجل نظرة فلسـفية شـاملة وبالدرجـة الأولى الأرسـتوطاليسـية والأفلاطونيـة الجديدة، وذروتها للإسلام، أي من أجل عقلانية مدعمة بالحجج للدين، وهي مترابطة بشـكل لا يقبل الانفصام مع ثلاثة من الفلاسفة المسلمين في العصور الوسطى الذين برزوا في المشرق وهم: الكندي (المتـوفي عـام 873) فيلسـوف العـرب الفـارابي (واسـمه باللاتينيـةAlpharabius المتـوفي عام950) الذي يرجع في أصله إلى تركستان (فاراب) في أواسط آسيا، والفارسي ابن سـينا (المتـوفي عام 1037).

والكندي تحول كأول فيلسوف عربي إلى الأرستوطاليسية ومدرسته الفلسفية التوفيقيـة Eklektizitism وهي ضد التأملات النظرية اللاهوتية التي تمثلهـا التعـاليم الإسـلامية المتشـددة وعلينا أن ندرك بأن العلـوم الطبيعيـة، وقبـل كـل شيء الرياضـيات هـي التـي تمثـل الأسـاس في الأفكار الفلسفية. وقد كتب الفارابي أيضا حول المدينة المثالية العربية، بحسب المثال الذي كـان أفلاطون قد كتبه مؤكداً على ضرورة دراسة علوم العالم. وفي الختـام مثلـت الفلسـفة الجوهريـة

للشرق المسلم، لابن سينا بأفكاره مع أبن رشد اللاهوتية الأوربية التي أثرت بعمق في فهم أبدية وجـود الجـوهر(المـادة) الـذي كـان في نظامـه الفلسـفي ذو تصـورات مثاليـة تـرتبط بمبـادئ مطلقة(الـلـه) وإلى جانب أبن رشد (اسمه باللاتينية Averroes) كان ابن سينا يعتبر ممثلاً مهماً لنظرية "الحقيقة المزدوجة" التي تضم نقداً صريحاً للرؤية الدينية للعالم وإبراز أهميتها للنـاس، وفي نفـس الوقـت مـن أجـل تأكيـد ضرورة وجـود الفلسـفة إلى جانـب الـدين. (أطلـق علـيهم الدهريون، ويقابلهم في لاهوت المسيحية السكولاستيون ـ المترجم).

وعلى الرغم من أن فلسفة كهذه لا تهز أرضية الإسلام، فقد أكتفى التيار النتشدد بتأكيد الضرورة للبرهنة العلمية على أهمية الإدراك الحسي في عملية المعرفة والاستحقاق العام لتعميق المعارف في حقل العلوم الطبيعية من أجل خوض معركة صريحة ضد أطروحات الفلاسفة، التـي أندفع إليها بصفة عامة اللاهوتي الإسلامي الكبير الغزالي. ومن جهة أخـرى لم يكـن مسـتغرباً أن هؤلاء الفلاسفة بصفة عامة وجدوا في التيار الشيعي الإسلامي دعماً معنوياً ومادياً.

وكانت الحركة الأدبية للشعوبية وبسبب انبثاقها في المدن، متأثرة بشكل جـوهري بهـذه الروح ومؤثرة على سير تطور الشعر والنثر القصصي في فجر الـعصر العبـاسي. وهنـاك اثنـان مـن الشعراء المنحدرين من أصل فارسي، عاشـا في المـدن بإمكانـات معيشـية مرفهـة، أطلقـا العنـان للعواطف والغرائز، في تناول الخمر الـذي حرمـه القـرآن، وفي رفـض صريـح للتشـدد الإسـلامي، وهما: بشار بن برد(719 ـ 783) وأبو نؤاس (762ـ 813) والحقيقـة أن كـلا الشـاعرين وغـيرهم كثيرون كانوا فاعلين في بلاط الخليفة وتلقي أعمالهم الضوء على حياة البلاط.

وإلى جانب هذه المتع والمباهج، عاد الشعر ودخل حياة الزهد، وقد مثل ذلك الشاعر المتفوق شعرياً ولغوياً أبو العتاهية 748ـ 825، وكذلك الاهتمام بالشعر البدوي القديم. ومن الذين الذين يستحقون الذكر في هذا المجال هو الشاعر أبو تمام 809 ـ 845 ، والشاعر البحتري 897 ـ 821 .

وشهدت القصة العربية طفرة جوهرية على يد الفارسي أبن المقفع 721ـ 757، والتي هي جمع لأمثال هندية (كليلة ودمنة) والمنقولة عن الفارسية الوسطى على العربية. وفي نفس الوقت فقد أضيف إليها وجرى تعديلها وتهذيبها. وقد ترجم عمل ابن المقفع هذا إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، كما أنها لم تكن تخلو من التأثيرات العظيمة على الفن في أوربا. كما برز الجاحظ 775ـ 868، كأب حقيقي للقصة العربية وهو معلم وموسوعي المعرفة، فهو الذي ألف حوالي 200 كتاب في مختلف العلوم المعروفة في ذلك الوقت وعرف بذكائه الثاقب وأسلوبه الساخر ومقالاته الشهيرة.

وبلغة رائعة، وأسلوب أنيق يليق ببلاط، تطورت القصة العربية نتيجة لتنامي تبعية الشاعر والدعم المالي من مشجعي الشعر. وعلى الرغم من أن الجاحظ كان غالباً ما يأخذ شكل المتشرد الذي يعكس حياة وأوضاع الفئات السفلى والمتوسطة في المدن، والمقامات التي هي أدب مجمع على شكل اقصوصات درامية، على سبيل المثال بديع الزمان الهمداني 969 ـ 1008، والحريري 1059 ـ 1122.

وفي علاقة ذلك بالانهيار السياسي للخلافة، ويتقدم الإسلام المتشـدد، فقـد ظهـرت حـوالي نهاية القرن العاشر الظواهر الأولى على ركود التطور الثقافي، على أنها سوف تظهر بشكل محـلي ومحدود في بعض دول الإقطاع في المشرق العربي .

المصادر

1. Filshtinsky، I، M : Arabia Literature ، s: 83 Moskau 1966

مبحث 5 الفصل 4

Geschichte der Araber : teil 1 Leipzig 1974

حادي عشر : الثقافة العربية الإسلامية وأوروبا

بروفسور. د. غيرهارد هيب Prof. Dr. Gerhard Höpp

أرتبط التطـور الثقـافي في شـمال أفريقـي الإسـلامية وفي أسـبانيا أرتـبط بشـكل جـوهري بالخلافة في المشرق العربي، وتستحق الاهتمام تلك المساهمات من العناصر غير العربية أيضاً في هذا المجال ومنهم اليهـود والبربـر، بالإضـافة بـالطبع للعـرب، في سـبيل نهـوض ثقافـة عربيـة ـ إسلامية سواء كانت المساهمة في الخلـق أو الإيصـال، وهـذا يخـتص بدرجـة رئيسـية في ميـدان الآداب.

ومما هو عظيم الأهمية في هذه المنجـزات والجهـود، جـاء عـلى الأقـل في دور ومهـمات شمال أفريقيا وأسبانيا كوسيط لمكاسب كثيرة للثقافـة العربيـة الإسـلامية إلى أوربـا في العصـور الوسطى. وبدرجة رئيسية اليهود وعرب أسبانيا Mozararabern كانوا يستحقون الذكر من خـلال الترجمات للأعمال الأوربية والمعارف والتنكنيك والعلوم الطبيعية والفلسـفة، وقـاموا بتعريفهـا. ومن خلال الخلافة العربية ـ الإسلامية استفادوا منها بصورة فعالة وقاموا بتطويرهـا. والعلاقـات التجارية المتينة التي كانت بين شمال أفريقيا الإسلامية وأسبانيا من جهـة، والعلاقـات مـع مـدن جنوب فرنسا وشمال إيطاليا التجارية من جهة أخرى، وفرت لأوربـا الفرصـة في إقامـة اتصـالات مثمرة مع الثقافة العربية الإسلامية.

وهنـاك عـدد كبـير مـن العلـماء الأفـذاذ في أوربـا مـن خـلال العصـور الوسـطى الـذين كـانوا يتعلمـون باللغـة العربيـة مثـل: آرد فـون بـاث Adel von Bath 1090

ـ 1160، ميخائيل سكوت Michael Scott المتوفي عام 1235، وكانوا يدرسون في الجامعات الأسبانية ومدارس الترجمة كانت منظمة وعلى رأسها تلك التي في طليطلة التي كان يديرها دمنغو غودي سالفو، Domingo Coudisalvo في القرن الثاني عشر، كانوا يهتمون بترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية وإلى العربية والأسبانية. وحتى القرن السابع عشر كانوا يعنون بدرجة رئيسية في مجالات الطب وعلم الدواء)الصيدلة) وكانت هذه الكتب تستخدم في الجامعات الأوربية.

وصناعة الورق التي تطورت في الصين كانت قد وصلت في القرن الثاني عشر عبر سمرقند إلى مراكش ومنها إلى أسبانيا. وطواحين الورق (ورشة لإنتاج الورق، أي أقل من مصنع، يتجنب المؤلف تضخيم الأشياء ـ المترجم) طرحت مادة رخيصة للكتابة وبكميات كبيرة ومكنت الفرصة من أجل أنتاج واسع من الكتب. ومنها صار هناك سوق للكتب والمكتبات الخاصة ومكتبات الجامعات في البلاد الإسلامية العربية.

وهكذا تنقل لنا الأخبار أن مكتبة عبد الرحمن الثالث كانت تضم 400،0000 مجلد. وتملاء فهارس المكتبة وحدها 44 مجلداً. ومن خلال العلاقات الثقافية مع أسبانيا والمغرب في القرن الثالث عشر انتقلت أسرار صناعة الورق إلى إيطاليا(للمرة الأولى كان في شباط 1276).

وربحت جنوب أوربا بصورة رئيسية وقبل غيرها، من صناعة النسيج الأسبانية التي كانت مزدهرة في كل العهود، وبفضل تأثيراتها تطور في جنوب فرنسا صناعة النسيج. وهذا الأمر ينطبق أيضاً مع الصناعات الجلدية ومنتجاتها

التي كانت في أسبانيا ومراكش قد وصلت إلى مرحلة متطورة. وتضم اللغة الفرنسية اليوم مصطلح كوردونيري Cordonnerie وهي شهرة صناعة الأحذية في قرطبة.

والمساهمة الحاسمة قدمها المغرب الإسلامي تمثلت فيما يسمى بتطور الأرقام العربية في أوربا. بعد أن تعرف الخوارزمي في القرن التاسع بعبقرية على الشكل الرئيسي للأرقام الهندية واستخدامها. كانت متواجدة في أسبانيا وهي شبيهة وهي شبيهة بالأعداد الأوربية الحالية، وهذه الأعداد طورت من قبل الأستاذ الأوربي جيربرت Gerbert 930 ـ 1003 الذي أصبح لاحقاً البابا سلفستر الثاني ثم بدأت في استخدام في أوربا تدريجياً.وكذلك عالم الرياضيات الإيطالي ليوناردو فيبوسي 1170 ـ 1240 وهو من بيزا سكن لفترة طويلة في شمال أفريقيا(بويجي) ثم ساعدهم في زحفهم المنتصر إلى أوربا.

ومن أهم الفلكيين في ذلك الوقت، كان الفلكي الرزكالي المولود في قرطبة1029 ـ 1087 المعروف في أوربا كطبيب. وفي طليطلة المركز الروحي السابق في أسبانيا، حيث كان قد عمل بجدية وطرح نظريته من خلال الملاحظات ومن خلال اختراعه للعديد من الآلات الفلكية، وحضي بتقدير كبير لدى كوبرنيكوس لدقة وضبط أعماله.

وقد كان (الزهراوي) يعد بحق أكبر الأطباء المسلمين في أسبانيا(المتوفي عام 1013) والذي عاش في بلاط الخليفة الأموي الحكم الثاني. وقد دخل هذا العالم، كجراح ممتاز في موسوعة الطب مع كتابه المشهور" كتاب التصريف لمن أجاز التأليف" وقد ترجم هذا الكتاب في أوربا من قبل العلماء ومنهم جيراردو

دي كريمونا Gerardo di Cremona 1114 ـ 1187 وظل معتمداً في الجامعات الأوربية لعدة قرون كمادة تدريسية في قسم الجراحة وعلم الأدوية والصيدلة.

وكان علم الصيدلة مترابطاً بصفة وثيقة مع علم النبات، فمن الممثلين الرائعين لهذه العلوم، العالم أبن البيطار من ملقا، المتوفي عام 1248، الذي واصل سفره على مصر واليونان وإلى آسيا الصغرى، وكان يجمع النباتات التي تساعد على الشفاء والأدوية التي وضعها في أثنين من أعماله المهمة ونظمها في كتابه " كتاب الجامع في الأدوية المفردة" وفيها يستعرض أكثر من 1400 صنفاً من الأدوية منها حوالي 300 غير معروفة.

ويظهر ابن سينا مثالاً عن قدم العلاقة بين العلوم الطبيعية والفلسفة عند مفكري المذهب العقلاني العربي ـ الإسلامي وكم هي وثيقة. ولم يكن فلاسفة المسلمين في شمال أفريقيا وأسبانيا كذلك ليستثنوا من ذلك، والأهم والأعظم بينهم كان ابن رشد الذي طور الأعمال التي كان قد قام بها أشهر العلماء الذين كانوا قد سبقوه أو عاصروه إلى أعلى درجات التطور. وهنا وقبل كل شيء العالم أبن باجة المولود في سراغوستا 1106 ـ 1185 الذي كان في بلاط الموحدين في فاس. والكتاب الوحيد الذي نشر عنه، رواية " حي بن يقظان " الذي ترجم عام 1671 إلى اللغة اللاتينية من قبل بوكوك Pocock . وقد ضمنها أبن طفيل آراؤه الفلسفية والنظرية التي ثمنت عالياً. وهؤلاء جميعاً وكذلك الفيلسوف اليهودي الميموني 1135ـ 1204، والعالم الرائع المولود في قرطبة أبن رشد 1126ــ 1198، وكان ذو فاعلية وقد استدعى إلى فاس من قبل المنصور(من حكام الموحدين) في عام 1182 كطبيب. وكان قد عمل في مدينته وكذلك في سفيليا كقاضي، وكناقد وعالم لأرسطو. وللفارابي، لأبن سينا وأبن

طفيل، تمكن من تطوير نظامه الفلسفي الخاص، (الرشدية) Averroismus وهي ذات تأثير عظيم على المفكرين التقدميين الأوربيين في العصور الوسطى.

إن نقطة الانطلاق في فلسفته العقلانية كانت في الاعتراف بالمادة كأساس للأشياء. وبالنسبة له كان الله هو الوجود وهو وحده بإمكانه الخلق، عندما يكون مصدر الإمكانية متوفراً وهو المادة. وقد رفض ابن رشد ابن رشد بصفة خاصة الدوغماتية التي طرحها الغزالي كممثل للاتجاه الديني المتشدد" استقرار عمل الكون(الخليقة) وكان يدعى على العكس من ذلك، أنه ليس شيئاً مطلقا وإنه لا توجد نهاية مطلقة، بل يوجد فقط التغير الذي تفرضه الحتميات التي تقوم عليها الطبيعة.

والمحتوى والشكل في وجهة نظره شيء لا ينفصل. وبرأيه فإن المادة تضم جميع الأشكال وتنتجها من ذاته بنفسها. وانطلاقا من ذلك طوّر نظرية ابن طفيل التي يؤكد فيها الوحدة بين الإمكانات(القدرات) والواقع المتحقق، وإن العلاقات فيما بينها تجاه بعضها البعض هي نسبية. أو أن الكون موجود إلى الأبد ويجب على كافة الفرص تتحقق مرة.

وعلوم ابن رشد في مجال الفلك قادته إلى نتيجة، أن أعاد لها قدرة الحركة الخاصة بها، التي ليس لها بداية ونهاية. وقد توصل إلى الاستنتاج المهم، أن الحركة الأبدية، الخلق هي صفات الواقع الموضوعي للمادية.

إن نظريات أبن رشد في المعرفة هي تطوير لما كان ابن سينا وابن طفيل قد أدركه. وبحسب رأي أبن رشد، أن عملية المعرفة تبدأ مع الشعور والإحساس بواقع الأشياء ومنها العقلنة في مفهومها المجرد.

وأراء أبن رشد السياسية مترابطة مع الفارابي وأبن باجة، وهو رأي في هذا الجانب، أن السعادة الخالصة للإنسان إنما تكمن في معرفته لجوهر الأشياء. وفي هذا الشأن أظهر نفسه باعتباره أول مفكر كان ضد احتقار المرأة، ومكانتها في المجتمع العربي ت الإسلامي للعصور الوسطى التي لا تسمح لها بإظهار واثبات قدراتها فيه.

وأثرت الآراء الفلسفية لأبن رشد بشكل بليغ على الأفكار الاجتماعية في العصور الوسطى الأوربية، وزيكر فون برابانت Siger von Brabant 1240 ـ 1282 وبويتيوس فون داكين Boetius von Dakien استندوا إلى أفكار أبن رشد في صراعهم مع توماس الأكويني Tomas von Aquin والبرتو ماغنوس Albertus Magnus والفلاسفة روجر باكون Roger bacon 1219 -1294 وبيترو بومبونازي Pitro Pomponazzi ولوسيليو فانيني 1585 ـ 1619 Lucilio Vanini والفلاسفة الماديون الإنكليز في القرن السابع عشر الذين ثمنوا وقدروا الأرث الفلسفي الثري لأبن رشد. وكان أبن رشد قد تصدى في بلاده، الأندلس لمقاومة سيادة الإقطاع وللمتشددين الإسلاميين الذين نفوه على أسبانيا عام 1194 وربما تعرضت كتبه وأعماله لاحقاً للحرق.

وفي مجال التاريخ، فإن أسم أبن خلدون، وهو المولود في تونس 1382 ـ 1406 حاز بجدارة على أرث الفلاسفة العظام العرب والمسلمين. وقد اكتسبت

آراؤه من خلال سفراته الكثيرة وبتعدد المهمات السياسية، اكتسبت بعداً تاريخياً ضمنها في عمله الرئيسي "كتاب العبر" والجزء الأول منه هو "المقدمة" أسست مجده كمفكر اجتماعي.

وينال أبن خلدون الفضل والاستحقاق بأنه أول مؤرخ عربي / مسلم استطاع أن يستخدم نظريات الفلسفة المادية للكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وآخرين غيرهم في تفسير الظواهر في المجتمعات الإنسانية. وفي كتابه "المقدمة" طرح نبذة اجتماعية، نظرية حتمية التطور التقدمية للمجتمعات السفلى إلى العليا التي تتحقق من خلال تطور شكل النشاط الإنتاجي والإنساني.

وبالنسبة لأبن خلدون، فإن الحياة في المجتمع البشري ليست تراكم تصادفي من الحقائق والأحداث، بل أن هناك قوانين تسيطر على الأشياء. أنها ليس ساكنة، بل أنها خاضعة لتحولات دائمة. هناك حركة تشكيلات(تكونات) مستمرة دائمة لإمبراطوريات ومجتمعات، وهي مستقلة عن التدابير فوق الطبيعية(ميتافيزيقية) هذا التطور الحتمي خاضع للحياة المادية للمجتمع والحتمية وليس شيء آخر هو مصدرها.

ويوضح أبن خلدون، أن الأشكال المختلفة للحياة الاجتماعية، ناجمة عن تطور الإنتاج، وأنه يلاحظ اتحاد البشر ضمن مسيرة العمل بوصفها شرط القوة للتغيرات الهائلة في أنماطهم.

إن الأنجازية العلمية العظيمة لأبن خلدون اعتبرت لوقت طويل مناقضة للفلاسفة العرب والمسلمين. واليوم ما زالت تحوز لدى المؤرخين والفلاسفة

وعلماء الاجتماع التقدميين في جميع أرجاء العالم القيمة العالية لما توصل إليه ابن خلدون.

وكان أحد أبرز معاصري ابن خلدون البارزين، الرحالة ابن بطوط 1303 ـ 1373 المولـود في طنجة. والذي أوصلته رحلاته الطويلة إلى الهند والصـين وإلى سـومطرة وإلى أعـماق أفريقيـا. وعندما عاد إلى مراكش، بدأ وبتكليف من الحاكم المارني أبن عنان، بـإملاء تقـارير عـن أحـداث رحلاته ومشاهداته على جوزي الغالب(المتوفي 1356، ثم نشرها وقد اشتملت عـلى تقـارير مـن رحالة آخرين لا يقلون أهمية، مثل : أبن جبير 1145 ـ 1217 ، في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وغرائب الأسفار" والتاريخ يشكره على الأخبار الفائقة القيمة عن العلامـات الاجتماعيـة في أفريقيا القديمة.

ومن أهم الجغرافيين وعلماء الخرائط في ذلك العصر: الإدريسي وهو ينتمـي غـلى عائلـة الأدارسة(قرشيين هواشم) الذين حكموا المغرب، ولـد في سـويتا، ودرس وتعلـم في قرطبـة، وكـان الجزء الأعظم من حياته وأعماله في باليرمو(عاصـمة صـقلية) في بـلاط الملـك النورمانـدي روجـر الثاني Roger ملك صـقلية. وبنـاء عـلى طلبـه، ألـف الإدريسي أهـم أعمالـه بمـا في ذلـك " نزهـة المشتاق في اختراق الآفاق" ويدعى أيضاً كتاب الروجـر. والكتـاب يحتـوي عـلى صـفحات فضـية منقوش عليهـا خارطـة العـالم، وكـذلك تضـم حشـداً مـن المعلومـات والإيضـاحات والمعالجـات الجغرافية، وبشكل خاص تضم الخرائط التي أصبحت لاحقاً مشروع خرائط ميركـاتور Mercator وفيها إيضاحات عن صورة أوربا في ذلك الوقت.

وقد تركزت إنجازات الشعوب الإسلامية في شمال أفريقيا وأسبانيا في مجالات الأدب والفن وقبل كل شيء الفن المعماري وكذلك في التكنيك والعلوم الطبيعية والعلوم الروحية. وعلى الرغم من أن البداية كانت قوية تحت تأثير الأدب العربي المشرقي، إذ تطورت في أسبانيا أشكال أصيلة توفر المناسبة للحديث عن أدب عربي / أندلسي، ونؤشر هنا في المجال المساهمات الفريدة من عناصر الشعر الشعبي المتغلغلة، التي تبرز بدرجة رئيسية بشكل لغة شعرية. وقد تحقق هذا النمط في القرن التاسع وكان يقابل في المشرق العربي شعر "القصيدة" تحت تأثيرات الشعر الشعبي الروماني الذي سمي "الموشح" وهي مقاطع شعرية انسلخت عن الزجل في القرن الثاني عشر. هذه المقاطع الشعرية من الشعر الدرامي التي تضم الموشح في هيكلها، تظهر بشكل مقنع تأثير ونفوذ الشعر الشعبي الأسباني، وفوق كل اعتبار، التقاليد الكلاسيكية للشعر العربي التي تظم عناصر من اللغة العامية العربية ـ الأندلسية، المتاثرة بالبربرية والرومانية. ومن أروع من يمثله، هو الشاعر القرطبي أبن كوزمان Ibn Quzman 1080ـ 1160 وهو مغني متجول يغني للحب والخمر. وقد مارس الزجل الشعري الأندلسي تأثيراً ونفوذاً معيناً على الشعر الشعبي الإيطالي وعلى المتحدثين بلغة بروفينتسال (وهي لغة الرومان الغربية، وكانت تشمل العديد من المناطق الأوربية ـ المترجم) والتي بدورها أثرت على أساطير الحب الألمانية.

ومن المفترض أن القافية قد انتقلت من الشعر العربي إلى الشعر الروماني. والمغني المتجول أبن كوزمان أستخدم في أغانيه العود لعزف الموسيقى لمرافقته مع الكلمات في زجله، والذي أصبح من الآلات المفضلة لدى الأوربيين والمغنيين الشعريين.

ومما يستحق الذكر بصفة خاصة، هو الأنجازية الخلاقة لشعوب شمال أفريقيا وأسبانيا التي أضافتها إلى الفن العربي ـ الإسلامي في منطقة البحر المتوسط لا سيما في مجال المعمار. وحكام شمال أفريقيا وأسبانيا في تأسيسهم لأبنية فخمة، قصور، جوامع، حصون، مدارس، والتي تمثل إلى يومنا شواهد على جمال البناء والمعمار.

وإلى أسبانيا تسللت عناصر من الأنماط المغربية كما تداخلت الأنماط الغوطية، والرينسانس(عصر النهضة) سوية وكونت معاً نمطاً جديداً يطلق عليه موزأرابيان Mozarabian وموديارستيل Mudjarstil وهو ما يفصح عن نفسه قبل كل شيء من خلال استخدامات العديدة لقوس الحدوة، وزخارف الجبس والمنارات الغليظة المستطيلة الشكل. ومن أهم الآثار المعمارية التي ما زالت موجودة حتى اليوم والتي تعود إلى القرن الثامن، الجامع الأموي الكبير في قرطبة، والذي بنى في عهد الموحدين، الجيرالد في سيفيليا في القرن الثاني عشر، وقصر الحمراء لملوك الناصريين في غرناطة الذي بني في القرن 14/13 والذي مثل فن الركوكو العربي.

ومن الشواهد الأخرى على تداخل الفنون في شمال أفريقيا من بين كثير غيرها: المنارة القرطبية التي بنيت في القرن الثاني عشر في عهد الموحدين(المنصور) في مراكش، وكذلك جامع حسن الذي شيد في عهد المارنيين(أبي يعقوب) في القرن الثالث عشر في الرباط.

ومن الآثار التي تدل أيضاً على التطور العالي في شمال أفريقيا وأسبانيا، هي أعمال الحفر والنقش على العاج والخشب والأعمال الفنية ومنها الأعمال الحديدية(الأسلحة) والخزف (السراميك) والمنسوجات.

وقد مارس الفن الماوري(العربي الإسلامي الأندلسي) Maure في المعمار نفوذاً قوياً عبر أسبانيا وصقلية على أوربا في العصور الوسطى ولا سيما في إيطاليا.

هذا التقرير هو المبحث السادس وهو من تأليف د، هيب، من أكاديمية العلوم الألمانية، وهو قسم من الفصل السادس/ الجزء الأول، صفحة 239 وحتى صفحة 248، من موسوعة تاريخ العرب ذو الأجزاء السبعة تأليف فريق من العلماء والمستشرقين برآسة البروفسور دكتور لوثر راتمان، بجامعة لايبزج/ ألمانيا.

صادر في برلين / 1975 عن دار النشر الأكاديمية.

Geschichte der Araber ، Tei ، 1 ، Berlin 1975 Lother Rathmann

أحد عشر: التعبيرات الأيديولوجية للنضال المعادي للاستعمار

د. غيرهارد هيب Dr.Gerhard Hipp

* أود أن ألفت انتباه القارئ الكريم إلى قراءة هذا الفصل بعناية وانتباه شديدين، فهو ينطوي (بتقديري) على تحليل دقيق وعميق لأبرز التيارات والاتجاهات الفكرية والثقافية والحضارية في الوطن العربي، بصرف النظر عن اتفاقنا مع هذه الآراء أو اختلافنا. والكاتب د. هيب هو واحد من أهم العلماء في أكاديمية العلوم الألمانية(جمهورية ألمانيا الديمقراطية).

إن الانتعاش في النضال التحرري الوطني للشعوب العربية، والذي استلهم من ثورة أكتوبر/ 1917 وجد التعبير عنه لصورة واضحة وجلية في الصراعات الأيديولوجية المحتدمة في الأقطار العربية في تلك المرحلة حيث كانت الجبهات الإيديولوجية قائمة على الأسس الموضوعية والذاتية لوجود وشروط نضال الحركة الوطنية الناهضة. وبصفة خاصة في الهيكلية الاجتماعية المتقادمة والتي كانت بعيدة عن التطور، وهكذا تتفاعل الآن. وما يستحق الملاحظة، احتدام النضال المعادي للاستعمار وأيضا نبرة الخطاب الوطني للطبقات والفئات المختلفة على شكل تيارات إيديولوجية معينة في عملية استقطاب متزايدة، لتصبح رؤية الصراع الأيديولوجي سهلة في المواجهات المنتشرة بصفة واسعة.

هذه العملية جرت بصفة خاصة في البلدان التي لها علاقة بالتشكل (التكون) التدريجي لعناصر العلاقات الرأسمالية، وفي ذات الوقت أيضا كانت هناك التناقضات بين مفاهيم مختلف الطبقات وفئات المجتمع على كافة الأصعدة والتي بدأت تتعمق، وكان هذا يعني من جهة، بأن النضال الذي تقوده الطبقات البورجوازية للجماهير العربية من أجل الاستقلال الوطني قد وجد شكله الإيديولوجي المعبر والثابت. ومن جهة أخرى، كان ذلك انعكاس ديالكتيكي للتأثيرات المتبادلة بين الوطني والاجتماعي في تركيبات النضال الأيدلوجي للتغير في أشكالها ومستوياتها، وليس هناك ثمة شك بأن هذا التطور أيضا وبناء على تلك الحتمية الموضوعية، والتي عبر عنها لينين بقوله: " كلما كان النهوض الجماهيري العفوي قوياً، كلما أصبحت الحركة عريضة وواسعة، وسريعة أيضا، وليس لسرعتها مثيل، وتنمو الحاجة إلى الوعي ".[1]، وكلما " انتشرت واتسعت الحركة الشعبية كلما أتضحت أكثر الطبيعة الحقيقية لمختلف الطبقات".[2]

تعرضت هذه الاتجاهات في الأقطار العربية للقمع سواء في تشكلها أو في التطور النظري والتوسع جوهرياً في أربعة تيارات مختلفة من حيث المحتوى والشكل، التي تعبر عن مصالح وأهداف مختلف الطبقات الاجتماعية. كان البعض منها قد تكون في المراحل المبكرة للحركة الوطنية. وكان الأمر يدور بصفة خاصة عما يسمى بحركة تحديث الإسلام وكذلك عن القومية العربية التي كانت على صلة وثيقة مع نشأة علاقات الإنتاج الرأسمالية في الشرق الأوسط وكذلك تنوير البورجوازية المبكرة التي كانت قد نهضت في النصف الثاني للقرن التاسع عشر. وتلك الحركة التي مثلت بصفة عامة أساس القاعدة الأيديولوجية للبورجوازية العربية، والأخرى، التي وإن لم تكن معروفة أو ملفتة للنظر حتى ذلك الوقت، كحركة اشتراكية للبورجوازية الصغيرة.

وقد بدت الظاهرة الجديدة للمرة الأولى في أقطار الشرق العربي في نهاية القرن التاسع عشر. وكذلك في مصر من خلال تأسيس أحزاب شيوعية في الأقطار العربية، وتأثير الأفكار الماركسية اللينينية التي كانت قد اتسعت بصورة كبيرة. وتحت ظل شروط وظروف صعبة، كان الشيوعيون العرب يمثلون مصالح البروليتاريا ووقفوا في الصفوف الأمامية للنضال من أجل التحرر الوطني والاجتماعي، وقد سعوا إلى ترجمة التعاليم اللينينية والدروس الشيوعية الحقيقية إلى لغة شعبهم.

وكانت المسألة الرئيسية في هذه التيارات الإيديولوجية، الصراعات الروحانية في المرحلة الجديدة لنضال الشعوب العربية المعادي للاستعمار. إذ كانت العلاقات المميزة لمرحلة التحرر العربية هذه، قد تمثلت ابتداء في كفاح جميع الطبقات والفئات الاجتماعية تقريباً، من أجل الاستقلال بقيادة القوى البورجوازية. وقد ظهرت اتجاهات التصادم ضد الإقطاع وضد الاستعمار في مفاهيم هذه الأيديولوجيات موضوعياً كمركبات جوهرية في تعارض الأفكار في تلك المرحلة.

وكانت في ذات الوقت(وقد جعلت الفعاليات السياسية الأيديولوجية للشيوعيين العرب من ذلك أكثر وضوحاً، وكذلك بعض وجهات النظر للحركات الاشتراكية للبورجوازية الصغيرة)، قد ابتدأت مركبات معادية للرأسمالية تتشكل أيضا في حركة التحرر. وهذه الظواهر بالذات جعلت من الممكن رؤية أو أدراك، أي أهمية تكمن في فحص التعبيرات الأيديولوجية سواء في طبيعتها أو في مهامها، وكذلك على أصعدة النضال الأيديولوجي في هذه

المرحلة، في أنها لا تمنح فقط إيضاحات ومهمة حـول حالـة الإدراك، في حركـة التحـرر الوطنيـة والقومية، ولكنها تتوسط (دور الوساطة ـ المترجم) إلى معـارف أخـرى مهمـة أيضـا، لا بـد منهـا لتفهم الصراعات الروحية التي تدور الآن في الأقطار العربية.

لذلك، وفي الصفحات التالية، سنقدم وصفاً موجزاً لبعض وجوه النضال الأيديولوجي لتلك المرحلة، ومن الطبيعي أن هذه الظواهر ليست متوفرة في جميـع الأقطـار العربيـة[3] وأنه لمن الملاحظ ولأسباب تكنيكية عملية تستوجب تصنيف الظواهر التـي سـتعرض هنـا، التيارات غير البروليتارية، أو التي لا ينبغي أن تضلل على أنهـا كـذلك، وعزلهـا عـن بعضـها وعـن سـائر التطـورات الاجتماعيـة في الأقطـار العربيـة، بـل وأكـثر مـن ذلـك، الإحاطـة بالتناقضات النظرية والسياسية ونبذه عن التعقيدات وتعدد وجـوه النضـال الأيـديولوجي، والتي جرت في حالات كثيرة في السـابق كـما اليـوم، في بعـض الأقطـار العربيـة تحـت ظـل ظروف وشروط جديدة.

أولاً : الإسلام والنضال المعادي للاستعمار

إذا أردنا بحث دور ومهمة الإسلام كوسط أشكالي رئيسي، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسهاب في أسباب ذلك. إن تاريخ العرب يشير إلى أمثلـة لهـا أهميـة عظيمـة للـدين الإسـلامي في كافـة مجالات وفـروع الحيـاة الاجتماعيـة وفي أفكـار البلـدان العربيـة ضـد حمـلات الغـزو الأجنبيـة والمضطهدين، كما تطرح لنا على سبيل المثال، بأن (العرب) خاضـوا تحـت رايـة الإسـلام وتحـت شعار الجهاد، النضال ضد المسـتعمرين المحتلـين البرتغـاليين، وتمثـل كـذلك في نضـال الوهـابيين

ضـد الطغيـان العـثماني، وفي حركـة انتفاضـة المهـديين ضـد البريطـانيين، والسنوسـيين ضـد الاستعماريين الإيطاليين، وهي أمثلة لا يمكن تجاهلها.

هذه الأمثلة وغيرها كثيرة، تؤكد وتثبت بصورة مؤكدة الحقيقة العلمية التي توصـل لهـا ف. أنجلز، بأن الرؤية الدينية للمسلمين " لها تأثيراتها الفعالة على مسـيرة النضـال التـاريخ. وفي حالات كثيرة يكون لها شكلها الغالب"[4] وهـي تثبـت في نفـس الوقـت أن الإسـلام لم يكـن قـط نظاماً أيديولوجياً متجانساً، بل أكثر مـن ذلـك، فكـما ويشـير لنـا التـاريخ، بـأن قـوى اجتماعيـة مختلفة بحثت حاولت تبرير مساعيها ووجدتها، من أتباع الحلقـات الإسـلامية الأولى، فـيما كـان احتجاجهم السياسي والاجتماعي ضد سـيادة النظـام في العهـود الإسـلامية الأولى، أو عـبرت عـن نفسها بانتفاضات الفلاحين المضطهدين، والحرفيين، أو في انتفاضات مجاميع عرقية ضـد تسـلط الإقطاع الإسـلامي والتـي كـان أكثرهـا تحـت رايـة شـعبية جماهيريـة، وكلهـا تظهـر سـواء كـان المستغلون أو المستغلين من الديانة الإسلامية هم في خدمة مصـالحهم الأصـيلة، وهـي مفهومـة على هذا النحو.

وكلتا الرؤيتين وهما أيضـاً عنـد تقريـر دور ومهمـة الإسـلام في نضـال الشـعوب العربيـة المعادي للاستعمار. وفي هذه المرحلة من النضال الوطني التحرري، فقد أمتلـك الـدين الإسـلامي كما كان في السابق، النمط الشعبي والعقيدة ذات الأهمية الحاسـمة في نطـاق المصـالح للقـوى الاجتماعية المختلفة بدون أن تستطيع في هذا المجال، سواء في الهيئة أو في طبيعة المهام العمل، التي كانت عليه حركة المذاهب، أو التنظيمات الإسلامية التـي كانـت قـد بـرزت إلى الوجـود في أواسط القرن التاسع عشر وهذه لها أهمية خاصة بالنسبة إلى الإشكالية التي نبحثها.

وتحت شروط نشوء وتشكل علاقات الإنتاج الرأسمالية في معظم الأقطار العربيـة، التـي كانت متأثرة بمقاييس قوية، وبشدة بالرأسمالية الأوربية، وقـد أصـابها التشـوه مـن جـراء هـذا التأثر بالإضافة إلى تفاعلات التوسع الاستعماري في شمال أفريقيـا والشرق الأوسـط، وكـذلك مـن خلال صلات وثيقة مع حركة التنوير العربية البورجوازية التي بدأت في مصر وفي المغرب العربي، بدأت اتجاهات أيديولوجية جديدة بالتشكل والتكون: عملية التحديث الإسلامية.

وفي هذا التيار الذي يتشابه في بعض الوجوه مع حركة الإصلاح المسيحية في أوربا وقد عوملت كما جرى التنويه من أجل أن تكون الأساس الإيديولوجي لكل ما صدر عـن الإسلام في مرحلة الازدهار والسيادة والتي تعد تاريخياً قـوى تقدميـة مـن البورجوازيـة العربية الفتية ومن خلاله خلقت " دينها الخاص الذي يناسبها".[5]، إسلامياً طور علاقات إنتاج جديدة تتلاءم مع المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافيـة للطبقـات الجديدة، وفي نفس الوقت عبر المحدثون الإسلاميون الذين كان بـروزهم لا ينفصـل عـن اسم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بوصفهما من أهم إشكال التعبـير الأيديولوجيـة للحركة التحررية العربية المعادية للاستعمار، وقد أصبحا أحـد معـالم التقاليـد التقدميـة وتشبه فعالياتهما ما قام به(مارتن لوثر). وقد تأثر بذلك علماء دين وثوريـون عـلى حـد السواء في مشـاركاتهم الحماسـية في أول نهـوض وطنـي للشـعب المصري بقيـادة أحمـد عرابي ضد الاستعمار الذي مثل اتجاه التحديث في الإسلام.

والمحدثون الإسلاميون في القرن العشرين، بـذلوا أيضـاً جهـودهم في تعميـق العملية التي كان يقودها محمد عبده في فتح باب الاجتهاد، وكان ذلك يعني فـتح

الأبواب أمام تفسير واسع لمصادر الدين الإسلامي من أجل التغلب على التقاليد وأبعادها.وبذلك قاموا بدور حاسم بوضع نمط من التفكير الجديد في الإسلام الذي كان يشوبه الجمود، وتحطيم جمود إيديولوجية إقطاعية لم تتغير منذ القرون الوسطى، وجعلها ملائمة للعصر، وجعلها كعامل تعبئة أيضا في خدمة النضال الوطني التحرري.

هكذا إذن، كانت توجهات حركة التحديث الإسلامي في القرن العشرين والتي يعد محمد رشيد رضا من ممثليها البارزين والذي أسس في مصر السلفية الحديثة، وأيضاً عبد الحميد باديس، مؤسس رابطة علماء الجزائر الذي له آراء محترمة ومقبولة حتى الآن، ومن مراكش، عبدة شعيب الدوكالي. وكانت مهمتهم تكمن في تحرير الإسلام من الخرافات والجهل والتعصب، ووقوف الإسلام كعصبة واحدة موحدة، بل وكسلاح في النضال التحرري الوطني والقومي من خلال أبراز التقاليد التقدمية التاريخية، وليس أخيرا، التأكيد علة اللغة العربية كهوية مميزة للأمة العربية التي أصابها الاهتزاز من خلال القوى الغربية وإعادة الوعي والثقة إلى الشعوب العربية.

ولكن هذه المساعي لتحديث الدروس ومحتوى التعليم وانعكاساتها لمركز لحركة التحرر الوطني لاقت الفشل، وبشكل ملموس في محاولات الإصلاح حيال المراكز الدينية الكلاسيكية، الواسعة النفوذ، في القاهرة (الأزهر) والزيتونة(تونس) والقرويين(فاس / المغرب)، ويبدو بوضوح أكبر في الأزهر. وعندما يتذكر المرء الدور الهام والفعال للنشاطات السياسية للشخصيات الروحية والطلبة في الثورة المصرية عام 1919، وذلك يطرح نفسه أيضا في نضال المحدثين في شمال أفريقيا ضد الرجعية والغموض والتعصب في بعض

الاتجاهات الإسلامية والتي كانت تقف إلى جانب الاستعمار الفرنسي في قمعه لحركة التحرر الوطنية. وأخيراً الجهود التي بذلت في مصر بصفة خاصة للتغلب في مجال قواعد التعامل والحقوق، فوجد انعكاسه في مقترحات إصلاح ديمقراطية ـ بورجوازية من شأنها إصلاح مكانة المرأة المسلمة واعتبارها في الحياة الاجتماعية، وذلك بصورة مترابطة مع أعمال قاسم أمين لا سيما في الحركة النسوية المصرية المهمة التي كانت ملتفة حول هدى شعراوي.

وهذه الأمثلة القليلة توضح الدور المهم الذي لعبته حركة التحديث الإسلامية في فعاليات وتعبئة النضال التحرري الوطني للشعوب العربية. ومن بين هذه الفعاليات برز قادة لعبوا أدوار تاريخية مهمة في حركة التحرر العربية مثل: علال الفاسي، شكيب أرسلان، الثعالبي، فرحات عباس، لطفي السيد، سعد زغلول، وآخرون كثيرون.

وفي وصف وتميز ظاهرة حركة التحديث الإسلامية، لا ينبغي تجاهل التناقضات النظرية الداخلية وكذلك السياسية العملية، تلك التناقضات التي (بدون شك هي نتيجة لحاجات ومستلزمات اجتماعية) التي أدت مرغمة إلى أن تلعب دوراً تقدمياً لا جدال فيه في النضال المعادي للاستعمار وجعلت من أي أمر آخر حيال ذلك نسبياً. وقد كان المحدثون الإسلاميون الطلائعيون، جمال الدين الأفغاني وأبرزهم: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، قد برهنوا في أعمالهم الدينية أو السياسية على أن فاعلية التناقضات هذه على أساس النظرية البورجوازية، وهكذا فإن أعمال الأفغاني هي أيضا تعد في خدمة الحركة القومية العربية بدون شك. وفي تأسيس فكرة الجامعة الإسلامية(التي كانت أساساً توجهات معادية للاستعمار) والتي أصبحت فيما بعد سلاحاً بيد آخر سلاطين

العثمانيين وقادة تركيا الفتاة، فتحولت إلى سلاح خطر ضد الحركة القومية العربية، وحتى اليوم تعد هذه ذخيرة وترسانة روحية وسياسية بيد الرجعية الإسلامية. وعلى المرء أن لا يتجاهل بأن الأفغاني كان يوجه نضاله ضد الحركة الاجتماعية للبورجوازية الصغيرة في الأقطار العربية، كما بادر إلى استخدام مصطلح (الاشتراكية الإسلامية) ووضع أسسها النظرية، وما زال حتى اليوم خصوم التقدم الاجتماعي يستخدمونها كقاعدة أيديولوجية.

وختاماً فإن الحقيقة التي لا يمكن الصمت عنها، هي أن محمد عبده لم يكن مؤيداً للنضال الثوري للجماهير، أو للحركة الوطنية المصرية في تعبئتها وراء أحمد عرابي ومصطفى كامل، كما أنه كان صديقاً مقرباً من القنصل البريطاني العام في مصر اللورد كرومر.

ومن الواضح الجلي، هو حدود حركة التحديث الإسلامية التي استخدمت كعنصر تعبئة في النضال المعادي للاستعمار مقابل فعاليات محمد رشيد رضا، والتي بواسطتها تطور هذا التيار الأيديولوجي إلى ذروته، وبنفس الوقت إلى مرحلة تحجره والانحدار إلى تعصب جديد، وبه ومن خلاله كان أبرز وأهم تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قد مضوا في عملية يمكن للمرء أن يقارنها بالظاهرة التي حدثت قبل بضعة قرون، عندما كان اللاهوتي الأشعري والغزالي والمعتزلة والصوفية قد وضعت في قائمة الأفكار المحافظة، وبذلك فإن هذه التيارات غير المتعصبة سلبت مئات من السنوات قوتها الثورية.

وإذا جاز لنا اعتبار الغزالي مؤسساً لمدرسة التعصب الإقطاعية في العصور الوسطى، فإننا سنعتبر محمد رشيد رضا "غزالي من نوع جديد" وظاهرة

تاريخية تقدمية وعنصراً ثورياً في الأفكار المعادية للاستعمار والتعامل في الحياة مع الإسلام وتجميد المدرسة المتعصبة. وهو الذي خلق " الاقتصاد الأخلاقي الإسلامي " وصاغ منها تلك الاشتراكية الديماغوجية عن طريق ثالث بين الرأسمالية والاشتراكية، وعن أمكانية توافق طبقي سلمي من خلال الضرائب الاجتماعية والزكاة التي تظهر اليوم في الأقطار العربية تعبر في الأساس عن معتقدات / الأيديولوجيات البورجوازية المحافظة وصغار البورجوازيين، وكحجج ضد الأفكار الاشتراكية والحركات التقدمية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط العاملة في الميدان، ونعد سعي العناصر الرأسمالية وكأنها مسألة مبررة واستحقاقات دينية.

ومرة أخرى تجلت شدة هذه الاتجاهات المحافظة الجديدة لرضا في مواقفه حيال قضية على عبد الرازق. ففي عام 1925 كان علي عبد الرازق وهو الأخ الوحيد لشيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق، قد تخرج من الأزهر، وبتأثير شديد لسياسة فصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة التي كان مصطفى كمال أتاتورك يمارسها، وقد أثار نشره لكتابه "الإسلام وأصول الحكم" الاضطراب في أوساط الرجعية الدينية، وبالصلة والتواصل مع أفضل التقاليد في استفهام والاستيضاح العربي، طالب علي عبد الرازق بتعميق متواصل لعملية التحديث الإسلامية، والذي استطاع من خلال دراسة قام بها في جامعة أكسفورد، أن يكون على تماس مع أفكار هوبس Hobbs ولوقا Locke التي تضم أفكاراً عن فصل الدين عن الدولة، وبحس رأيه، فإن مؤسسة الخلافة تعني ألحاق التهمة بالدين الإسلامي والمسلمين وما يمارس بأسم الإسلام من طغيان ثيوقراطي يتناقض مع النوايا الحقيقية للنبي محمد وتعاليمه. وقد كتب قائلاً " الدين الإسلامي الذي يدين به المسلمون لا علاقة له بأي خليفة، وكذلك بالسلطة والسلطان وكذلك

مع الاجتهاد، وأن الخلافة لا تعد من المؤسسات الدينية وكذلك وظيفة القاضي. والوظائف الحكومية الأخرى والمواقع في الدولة المركزية" وقد أكد مفكر عقلاني مسؤوليات التنوير العربي، بأن " ليس في الدين الإسلامي ما يمنع من التنافس مع الأمم الأخرى في المجالات الاجتماعية والعلمية وفي إلغاء أي نظام قديم يذلهم ويخضعهم، ووضع أسس الدولة والنظام الحكومي وفق أفضل وأحدث ما توصل إليه الفهم البشري وما أشارت إليه تجارب الشعوب كأفضل ما يمكن من مبادئ مهام الدولة والعمل بها".[6]

وعملياً، فإنه بذلك كان قد وجه التحية إلي القرار الذي اتخذه الاجتماع الوطني الكبير(البرلمان) في الحل الرسمي للخلافة، وفي نفس الوقت، وقف ضد الانشقاق في الحركة المعادية للاستعمار، وعززت من جهوده فيما يخص الخلافة. وكان يقف هذا الموقف محمد شوكت علي، محمد رشيد رضا، ورجال الدين المشهورون الذين ينتمون إلى الأزهر، والذين كانوا قد ساهموا في مؤتمر الخلافة في أيار/ مايو ـ 1926 في القاهرة، وفي تموز/ يوليوـ 1926 في مكة، وكذلك في إيجاد مؤسسات إسلامية دائمية(مؤتمر العالم الإسلامي) الذي ما زال يحاول حتى اليوم يسعى لخلق الإمبراطورية الإسلامية العظمى.[7]

وهكذا لم يكن مثيراً للدهشة بأن مجلة رضا(المنار) ذات النفوذ، والتي كانت تدعم (وكذلك كان البلاط) حزب الاتحاد. وقاد أصحابها معارضة شديدة ضد على عبد الرازق الذي كان ومن خلال إدانات نشرتها مجلة المنار لكتابه، أدت إلى منع أول كتاب من قبل علماء الأزهر(كما أدين هو شخصياً وصدر تحريم تقليده أي وظيفة عامة)، وبذلك كان رضا من اشد خصوم علي عبد الرازق وكذلك مفتي مصر محمد بخيت. ووصفوا هذا المسلم الليبرالي بأنه

عدو للإسلام، وهـو الـذي أشـتهر بسـبب مقالتـه" الـدين، الإلحـاد، الاشـتراكية" و " الاشـتراكية، البلشفية، الدين" التي سببت تعاطفاً مع الاشتراكية. وكـان رضـا متفقـاً مـع قـرار الأزهـر بقطـع الصلة مع "مثير المشاكل" علي عبد الرازق، ووصف مقاصده بأنها تنطوي عـلى الإلحـاد، وتتهمـه الرجعية بديماغوجية " ببلشفة الإسلام". هذه التوجهات من محمـد رشـيد رضـا الـذي لم يخـف إعجابه بالنظام الوهابي الإقطاعي السعودي، كـما بلغـت التوجهـات المحافظـة الجديـدة أوجهـا بتأسيس جمعية الأخوان المسلمين.

تأسست جمعية الأخوان المسلمين في سنوات 1928/ 1929 في ظروف الأزمة الاقتصـادية العالمية التي كانت مؤثرة على الأقطار العربية أيضا كما في مصر. ففي الوقت الـذي كانـت فيـه أقسام من البورجوازيـة المحليـة تبـدي الاسـتعداد مـن أجـل التفـاهم والوفـاق مـع الإمبرياليـة البريطانية عن طريق أحزابها، وهنا فإن البورجوازية الوطنية وفي حالات كثيرة كـادت أن تتنـازل عن قوتها الثورية. كما أنها أظهرت فيما يخص قضايا الملكية المختلفة تأثراً بأيديولوجية الأخـوان المسلمين، موقفاً متعصباً دينيـاً وقوميـاً، كـما أنهـم عكسـوا احتجاجـا عفويـاً وآمـالاً بالاسـتقلال وأمنيات غير واضحة المعالم في ظروف الاضطهاد الاستعماري من خـلال المضـطهدين مـن القـوى المحلية الذين كانوا يلحقون الأذى بـالفلاحين الفقـراء والحـرفيين وصـغار التجـار والمثقفـين مـن البورجوازية الوطنية.

وحسن البنا هو المؤسس والمرشد الأول لهـذه المنظمـة الدقيقـة التنظـيمات ذات المراتب المتدرجة. والبنـا هـو ابـن أحـد مصـلحي السـاعات في منطقـة الـدلتا المصرية، وكان يعمل معلماً في مدرسـة ابتدائيـة في الإسـماعيلية. وقـد مثـل محمـد

رشيد رضا وهو من الملتزمين بالمذهب الحنبلي (الذي كان يصدر مجلته المنار وواصل إصدارها بعد عام 1949) والوهابيون المتشددون، من بين الأوساط المحيطة به. وكان البنا حتى اغتياله عام 1949 القائد الديكتاتوري لهذه المنظمة الجماهيرية التي كان قد وضع لها أساسها الأيديولوجي الذي يرتكز في النهاية على القرآن واتجاهات أخرى غير محددة بدقة ولكنها متجهة بصفة أساسية إلى خلق وتأسيس دولة إسلامية عظمى على هذى الإسلام كأيمان مشترك، وبذلك فأنها مواصلة واضحة لأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وفي ضرورة إقامة حكم "عادل مستبد" كضمان " لبعث الشرق" ووجدت هذه نفسها في نظرية الدولة لدى البنا الذي (كما لدى محمد رشيد رضا" دولة يكون القرآن دستورها وهناك خليفة على رأس هذه الدولة.

وكان البنا يعتقد أن سقوط الشرق هو بسبب رجوع الناس عن التعاليم الأساسية للإسلام، وطالب بالتطبيق الشامل في كافة مناحي المجتمع وكذلك الحياة الخاصة، (القوانين الإسلامية ـ الشريعة) كما طالب بحل جميع الأحزاب السياسية وإلغاء كافة القوانين والأنظمة والتعليمات الليبرالية ـ البورجوازية، وإحلال سيطرة صارمة لمساعي الدولة الإسلامية في السيطرة على حياة البشر وعلاقاتهم وفق تعاليم الإسلام. ولما كانت اللغة العربية هي المعبرة عن التعاليم الإسلامية الأساسية، لذلك ينبغي أن يكون جزءاً أساسيا من فعاليات التعليم للدولة الإسلامية الجديدة، ومرحلة التعليم لما قبل الدراسة الابتدائية ويجب أن تكون في الجوامع.

وبديماغوجية اجتماعية، من خلال محاكاة شاملة للنموذج الفاشي لماكنة الدعاية، وتحت شعار " رفع الفوارق الطبقية على قاعدة الأخوة الإسلامية"

وكذلك " النضال ضد النفوذ والتأثير المادي والروحي للغرب " و " النضال ضد الفساد والنزاعات الحزبية"، استطاع الأخوان المسلمون أن يحققوا وبسرعة نفوذاً وكثير من الأتباع بين جماهير الفلاحين وبين البورجوازية الصغيرة في المدن كما حاولوا أن ينالوا ويحققوا لأنفسهم مكانة بين الطبقة العاملة حيث نجحوا بتمرير بعض عناصرهم في النقابات. وفي حوالي نهاية الحرب العالمية الثانية كان عدد أعضاء الحركة قد بلغ أكثر من نصف مليون، وبما يشبه الشبكة من الفروع لحركة الأخوان المسلمين، التي كانت قد انتشرت في معظم أقطار المشرق العربي والسودان. ومن خلال تشكيل " الأخوات المسلمات" في مسعى للحصول على أتباع بين النساء، وأيضاً من خلال وحدات " الكشافة " لنيل نفوذ بين أوساط الشبيبة. كما أسس الأخوان المسلمين المزارع، ومشاريع صناعية وأعمال الخدمات، وبذلك كانت لديهم الوسائل المالية القوية في نضالهم السياسي. وتحت شعار منظمة الجوالة " للشباب الأكبر سناً من الكشافة" والتي تأسست فيها المنظمة العسكرية "الكتائب" ذات القوة الضاربة.

وليس ثمة شك بأن العداء للأجانب قد طبع بالحقد من قبل المتشددين دينياً والقوميين المتطرفين، وقد ضم شيئاً من عداء الأخوان المسلمين للاستعمار. وكان الأخوان المسلمين قد أقسموا على المصحف والسيف، وساهموا بفعالية في الانتفاضة العربية في فلسطين خلال أعوام 1937 ـ 1939 وكسبوا تعاطف الجماهير العربية معهم. وكان حسن البنا هو القائد لمثل هذه الاتجاهات المعادية للاستعمار، وبحسب المعطيات، فهو ينحدر من منطقة الإسماعيلية(حيث مركز القيادة البريطانية في قطاع السويس) وهناك شاهد بنفسه الاستعمار، وشحن بالكراهية ضد المستعمرين وسلوكهم التسلطي القائم على البطش.

ولكن قادة الأخوان أظهروا الانتهازية، حيث كانوا على استعداد لسياسات توفيقية. فقد ابدوا المبالغة في صراعهم المرير مع الوفد، ثم في تعاونهم مع الفاشية(الألمان) أو مع السلطات البريطانية بدرجة متساوية، ألحقت هذه السياسة الأضرار بحركة التحرر العربية، وكذلك في موجة من الإرهاب التي تنامت منذ الأربعينات لواسطة أعمال وفعاليات المنظمات العسكرية للإخوان المسلمين، ضد الخصوم من الداخل والخارج، وفي العداء المعلن ضد الشيوعية، مما أضعف جبهة النضال ضد الاستعمار. ومثل هذه الفعاليات كانت مضرة ومثلها مواقفهم في الثورة المضادة ضد النظام الثوري الديمقراطي في مصر في أعوام الستينات.

وتشير هذه الملاحظات إلى كون الإسلام قوة تعبئة لا جدال فيها ولكن أيضاً إلى محدوديته في النضال المعادي للاستعمار. وحيث كان الاتجاه الإسلامي يطرح: بأنه وفقط بشروط وظروف العمل الإسلامي تكون الحركة المعادية للاستعمار والشعور العربية ممكنة، وتوفر للبورجوازية المحلية قاعدتها الفعالة.

ثانياً : القوميـة العربيـة

كانت البورجوازية والطبقات المتوسطة الصغيرة تفتقر إلى القدرة في أن تتمكن من تحقيق وتأسيس هيمنتها وسيطرتها على مواقعها داخل حركة التحرر الوطنية والقومية نظرياً وسياسياً، تلك النظرية التي سيكون بوسعها أن تقوم بالتعبير بصورة فعالة عن مصالحها الطبقية وتحقيق شخصيتها في الحركة الوطنية، وإن ذلك يؤكد ما جاء في ملاحظات ماركس " تحصل طبقة خاصة باسم الحقوق

العامة للمجتمع على السلطة العامة". ومـن أجـل " اقتحـام هـذا الموقـع وبـذلك يـتم اسـتغلال سياسي لجميع الطبقات والفئات في المجتمع لمصلحتها. وحيث لا تكفي قواهـا الثوريـة الذاتيـة، لذلك فإن ثورة أي شعب وتحريره طبقة خاصة في المجتمـع البورجـوازي يـتم بصـورة تدريجيـة حتى يشمل المجتمع بأسره. وإلى جانب ذلك ينبغي عودة كل أقلية في المجتمع لتتركـز في طبقـة أخرى وينبغي أن توجه الضربات ضد الفساد الداخلي، وإلى جانب ذلك ينبغي أن تكـون هنـاك حواجز اجتماعية خاصة للجرائم المعروفة. ولذلك فـأن التحـرر مـن هـذه الـدوائر يبـدو وكأنـه التحرر الذاتي العام".[8] وربما أن عرض ماركس هذا يكون ملائماً ومصـيباً في مجـال آخـر. ولـذلك فأنه يعتمد على الظرف الذي كانت فيه حركة التحرر العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، وهذا يثبت الحاجة إلى الأيديولوجية التي تمنح القـوة التحررية بقوة إضافية مساعدة.

هذه المقتضيات تناسبت في مرحلة النضال ضد الاسـتعمار الـذي كـان كـالمجرم المشـهور الذي لا يمكن تجاهله حيـال الشـعوب العربيـة، حيـث نالـت الحركـة القوميـة موقـع الصـدارة ومكانة أهم من الحركة التحديثية الإسلامية، أيديولوجيا للفئات الوسـطى القويـة، والاتجاهـات التي قامت بناء على ذلك " لحظة نسبية من التطور التاريخي، سواء في خصوصيات أمـة مقابـل أخرى، أو تضـافر وتعـاون القـوى الاجتماعيـة المقابلـة ضـمن الأمـة الواحـدة مـن أجـل جعلهـا مطلقة".[9]

وقــد عرضــت البورجوازيــة المحليــة الأســاس الأيــديولوجي المناســب، وانطلاقا مـن ذلـك أصـبحت في وضـع يمكنهـا مـن السـعي بحيويـة وفاعليـة نحـو مصالحها وتساويها بمجمـوع مصـالح الأمـة (والسـيادة الكاملـة) كتـأمين سـيطرتها

على أشكال النضال المعادي للاستعمار. وفي نفس الوقت قدمت الأفكار المتحضرة(التلاحم القومي) وبمقياس قوي كعنصر موحد ومعبأ في النضال ضد الاستعمار. ومن أجل الاستقلال الوطني(كما اشرنا قبل قليل) مع تصاعد التوجهات الدينية الإسلامية وسائر (المقدسات) التقليدية الأخرى والحركات التحررية(المهدية ـ السنوسية) وكذلك الحركة التحديثية الإسلامية التي كانت في تلك المرحلة محصورة في المجاميع المثقفة(في حالة وجودها).

إن العلاقات الاجتماعية الغير المتطورة وبخاصة الهيكل الاجتماعي غير الناضج، والنهب الاستعماري المتزايد بحده، وكذلك ازدهار النزعات الدينية والأحتدامات العرقية المؤثرة على النضال الوطني التحرري استلزم المزيد من التعميق والتجذير التي ما زال لها حتى اليوم النفوذ على التيارات الأيديولوجية في الأقطار العربية.

ويلاحظ بأنه على رغم "حلول أنماط العلاقات الرأسمالية ونماذجها الأولى، فإن ذلك كان يقابله تقلص وانتعاش على مستوى أنصار الملكية في الرجعية الثيوقراطية على الأرض" أو " نوعاً من ألعلب البورجوازية الوطنية، أفرز ذلك في البدء الأفكار المازنية ـ الليبرالية كمثال يحتذي به والتي تنافست مع الأفكار الديمقراطية التي أعقبت الثورة الروسية 1905".[10]

حلت جميع هذه الظواهر والأفكار في البلدان العربية في مرحلة التحول إلى القرن العشرين، وقد عبر ذلك عن نفسه في فاعلية الرواد الطلائعيين القومين العرب(التي كانت متأثرة بالحركة القومية الإيطالية:البعث) Risorgimento بتأثير اليهودي المصري يعقوب صنوع(في مجال التأثر بالأفكار الليبرالية، وقد

ورد ذلك تفصيلاً في مكان آخر من الجزء الثالث ـ المترجم)، وأفكار السوري المسلم الكواكبي، وكذلك السوري المسيحي أديب إسحاق، والمصري المسلم عبد الله النديم، والمصري المدافع عن حقوق المرأة ذو الأصل الكردي قاسم أمين. وليس أخيراً الوطني المصري مصطفى كامل، فهؤلاء وغيرهم كثيرون من المنظمات القومية السرية التي كانت قد خاضت النضال قبل عام 1918 ضد الطغيان العثماني وقدمت تضحيات عالية تخضبت بالدماء، فقد كانوا يمثلون في أفكارهم وفي تعاملهم لأفكار القومية العربية يمثلون في الواقع قوة تحررية تشير إلى كونها أو بوصفها " شكلاً غير متطور من الوعي الجماهيري المعادي للإمبريالية".[11]

وفي المرحلة التي يدور البحث فيها عن حركة التحرر الوطنية، تطورت القومية إلى إيديولوجية رئيسية كشكل معبر لنضال الجماهير العربية ضد الإمبريالية وأيضا إلى نظرية صالحة عموماً وإلى أساس لهذا النضال بمشاركة مهمة وأساسية من البورجوازية الوطنية والبورجوازية الصغيرة التي دخلت ميادين النضال.

وهذه العملية كانت مرتبطة (متلازمة) مع تأسيس العديد من الأحزاب البورجوازية الصغيرة القومية في أغلب الأقطار العربية، وكانت مطالبهم تتمثل في الاستقلال الوطني، وفي الإصلاح الداخلي، قد وجدت صداها الكبير لدى الفئات العريضة للشغيلة التي عبرت عن ذلك في انتفاضات مسلحة وتظاهرات واسعة والقيام بأضرابات، وبذلك فأنها عبرت بوضوح (الحركات القومية) عن كونها أقوى الحركات التحررية المعادية للاستعمار، وفي نفس الوقت أنجزت

وعلى خطوات منتظمة الموقف العقائدي للحركة القومية العربية كما تظهر لنا المحاولات النظرية لجعل ذلك مجسداً أمام الأعين.

وقد طرحت هذه في أماكن أخرى العديد من الأمثلة، فمن أجل وضع المناهج السياسية للحركة القومية بصورة مباشرة في حركة نضال الجماهير المعادية للاستعمار، فقد استلزم ذلك في الصفحات التالية أيلاء أهمية خاصة لقضايا النضال المهمة للحركة التحررية القومية والتي تبلورت من خلال المطارحات الأيديولوجية للقوميين العرب، وفي الوسط الذي كان يجري منذ أواسط الثلاثينات حيث يشتد مباشرة في مجال السياسة العملية للصراع بين أوساط القوميين العرب والذي كان جوهره حول عقدتين من القضايا :

الأولى: في المناقشات حول العوامل الأساسية للحركة القومية.

الثانية: كانت حول استخدام الأفكار القومية وربطها بالخطوات الأولى من أجل تحقيق الوحدة العربية.

وفي ملاحظة للمناقشات حول الأجزاء المكونة للحركة القومية العربية، التي ساهم فيها إلى جانب المنظرين القوميين، الشيوعيين العرب أيضاً، وبذلك فقد يبدو للوهلة الأولى أنها لا تضم إلا القليل من المواد السياسية البالغة الأهمية. وكانت هناك وحدة في الرأي بين المفكرين القوميين حول اللغة العربية، في أن تنال المكانة الأولى، فقد مثلت اللغة العربية (ضمير الأمة العربية) وهي تعد عربياً من كانت " العربية، لغته الوطنية، بها يفكر وبها يعبر عن آراؤه وأفكاره وبصرف النظر عن الانحدار العرقي لوالديه" وبصورة مماثلة كان هناك أتفاق يتوافر عند تقيم التقاليد التاريخية للشعوب العربية" بما في ذلك الثقافية"

كعوامـل أساسـية للقوميـة العربيـة. وعنـد تقريـر مـا يسـمى بالمصـالح المشـتركة، التـي اسماها السوري قسطنطين زريق، وهو قومي مسيحي أرثـوذوكسي، لـه تـأثير كبـير عـلى القـراء الليبراليين، واللبناني عبد اللـه العلايلي، مثلـت عنـاصر جوهريـة للقوميـة وأشـعلت المسـاجلات الحامية.

وكانت المجادلات ذات نوعية خاصـة منهـا مـا يخـتص بالمصـالح المشـتركة أو "حمايـة المصالح" التي كانت قد طرحت مـن قبـل سـاطع الـحصري الـذي كـان مفكـراً رائعـاً ومنظـراً للقومية العربية، وكذلك من خلال مساهمة المـاركسي اللبنـاني رئيـف خـوري الـذي نشر عـام 1941 كتاباً بعنوان " معالم الوعي القومي"، ففي هـذا الكتـاب، وقـف ضـد تلـك الاتجاهـات الرائجة في تلك المرحلة، وكذلك في المراحل اللاحقة، من رومانسية غير معقولة في القومية تلك التي كان قد صاغها زريق في كتابه "الوعي القومي" عام 1938. وبحجـج متينـة جعلتـه ينـال التقدير في صفوف القوميين، أخضع فيها أطروحات زريق "المهمة العربية الخاصـة" إلى النقـد المقنع، والخوري الذي أنزل الرومانسية القومية إلى الأرض من عليائها، ثم أسدى خدمـة أكـبر بأطروحته" الحاجات الخاصة" إلى قضية الاستقلال والتقدم الاجتماعي التي تناضل مـن أجلهـا الجماهير وربطها ببعضها، فبالنسبة له كان ذلك " الهـدف الأخـير للفكـرة القوميـة الحقيقيـة وأمضى قوة، تمنح طاقة إنتاج للأمة من أجل تحسين الشروط المادية والثقافية وتوسيع عمليـة التمدن والتحضر وإزالة كافة الحواجز عن طريق انطـلاق الأمـة والتـي تعيـق نمـو عبقريتهـا" وبذلك نزع عن الحركة القومية العربية ثيـاب الصـوفية، ووضـع بـدلاً عنهـا الأسـاس المـادي الموضوعي.

وهذا الأسلوب كان ملزماً، وقد أستند خوري على أطروحة زريق التي تتحدث عن " اجتماع المصالح " وطرح بصورة جوهرية مفهوم " عندما تكون مصالح أطراف وأقسام أي أمة متصادمة، فإن هذه الأمة ستكف عن الوقوف" كما أنه أكد بالمقابل، بأن بوسع المرء مناقشة المصالح التي يشترك فيها أغلبية الأمة في مرحلة محددة من مراحل تطور الأمة. وفي نفس الوقت فقد أوضح الخوري بأن أكثرية الأمة بالنسبة إليه كانت: " إن الأمر يدور عن قوى تنتمي إلى عملية الإنتاج، تلك القوى التي ينبغي دعمها بالإضافة إلى أنهم يشكلون مادة البناء، فأنهم أيضاً يمثلون الولادة الجديدة للأمة ".

وبموجب الذي توصل إليه الخوري، فقد أصبح واضحاً، بأن النقد الذي تصاعد مبكراً وبسرعة في الأقطار العربية التي تعرضت للخطر، وأتضح لديها بأن من خلال الحركة القومية التي تقودها البورجوازية، تنطوي على ديماغوجية شعار" اجتماع المصالح". وإن الجهود كانت في مجال أماطة اللثام عن الظاهرة المؤقتة المتمثلة ببروز " السلام الطبقي ألدائمي) من بين الظروف المادية للنضال المعادي للاستعمار الذي تخوضه الشعوب العربية، والتفاعلات الضرورية لمختلف الطبقات والفئات من أجل الاستقلال الوطني ونيل الحريات الديمقراطية بوصفها حقوق مواطنة.

وقد وجد الخوري ذلك ضرورياً في تأكيد على الجماعية في النضال ضد المضطهدين الأجانب، وإبراز حقوق ومصالح هؤلاء الذين منحوا قواهم لقضايا فكرة التحرر القومي من خلال الفعاليات الجماهيرية. إذ أن: القومية العربية تحتاج في سعيها للتحرر القومي من خلال الفعاليات الجماهيرية، وأن " القومية العربية تحتاج في سعيها إلى التحرر، إلى طليعة مناضلة، التي تنظم نفسها

وتعبئ قواها من خلال النضال والعمل، وهي تضم نوعية أخلاقية ومعنوية عالية، كما أنها تمتلك الحماس وروح التضحية ويتألف أعضاؤها وقادتها من الطبقات الشعبية (ليس فقط من المثقفين" ولها رؤية فلسفية للطبيعة وإلى المجتمع والتاريخ، والتي أساسها في الدراسات العلمية التي في واقعها تطور وانقلاب في رؤية الأشياء".[12]

وفي المناقشات الفائقة الأهمية حول مسألة مواصلة تطور نظرية وممارسة الحركة القومية العربية في الأيديولوجية القومية. وفي هذا النزاع وفي هجمات شديدة ضد المحاولات التي كانت تقوم بها على الأغلب قوى إقطاعية من أجل الإبقاء على المثاليات الإسلامية الصرفة، كان قد غدا واضحاً، بأن لم يكن الدين، سواء لدى القوميين المسلمين، أو القوميين المسيحيين(وهذه بصفة خاصة)، يحتل عند تقرير الأساس النظري للحركة القومية موقعاً متقدماً، بل وأكثر من ذلك، فقد أنذروا وحذروا" وكان زريق قد أنظم إلى الكتلة الوطنية، وكذلك أدمون رباط، والعراقي عبد الرحمن البزاز" وحذروا صراحة من طغيان العامل الإسلامي في الحركة القومية، بل وقد أعتبر باحترام أن: الدين الإسلامي جزء لا يتجزأ من الإرث القومي للشعوب العربية، وقد حدث ذلك بالدرجة الأولى تحت تأثير توافق وانسجام قواعدها ومبادئها الأساسية الرقة والأخلاقية العامة مع الأديان الأخرى في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وبالتحديد المسيحية.[*]

وهذه الرؤية الليبرالية لمعظم القوميين التي تنطوي جوهرياً على توجهات دنيوية في إيديولوجيتها قد عبرت عن نفسها على سبيل المثال في مصر تحت شعار " الدين لله والوطن للجميع". هذه الرؤية منحت الفرصة وإمكانية التغلب

على الحواجز والموانع وفي توجيه الخطاب إلى جماعات السكان غير المسلحة، وجرها إلى النضال ضد الاستعمار تحت راية القومية العربية.

وقد بقيت لنا ملاحظة، بأن مواقف روحية كهذه، تضم فيما تضم، الطبقات المعتدلة التي كانت تتحول إلى الإسلام الحديث، وكان ذلك واضحاً في قناعاتها الاجتماعية والسياسية، والتي صاغها محمد رشيد رضا في " الاقتصاد الأخلاقي" والانخراط في المشروع القومي، وبذلك فأن المساجلة والمناظرة التي استغرقت طويلاً حول العلاقة بين الإسلام والقومية حسمت تدريجياً لصالح القومية.

والمجموعة الثانية المهمة المثيرة في المجادلات النظرية وفي الصراعات السياسية العملية بين القوميين العرب في أعوام الثلاثينات والأربعينات التي أحرزت الانتصار التدريجي على ما يسمى ب(القطرية) والتحقق التدريجي للأفكار القومية والارتباط بشكل وثيق بالمحاولات الأولى لأحياء فكرة الوحدة العربية.

بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية كان هناك في معظم الأقطار العربية شكل مما يسمى (القومية القطرية، أو المحلية) تسمى في الأدب الوطني (الوطنية) وهذا التطور كانت له أسبابه الجوهرية الكامنة، فمن خلال النضال التحرري الوطني دخلت القوى البورجوازية كقوى مسيطرة في هذه البلدان بوجه المعطيات الاقتصادية والسياسية وقد بدا لها هدف واقعي وظاهري من خلال نيلها للاستقلال الوطني من أجل وجودها المباشر ومجالات تأثيرها أدى بسرعة وفاعلية إلى تلك الشروط التي سمحت " بالنهوض كطبقة رأسمالية اعتيادية في

بلدانها"[13] وهنا لم يظهر أغلبية القوميين العرب في هـذا الوقـت، المزيـد مـن الاهـتمام إلى رؤى قومية عربية صرفة، أو أنها أزاحت على الأقل مثاليات المستقبل البعيدة.

وهكذا فقد ساد في أعوام العشرينات في المغرب العربي والشرق الأوسط، مـا يسـمى بالقطريـة(المراكشـية) و(التونسـية) و(السـورية) و (المصريـة) وفي نفـس الوقـت تعميـق للشعار الذي كان مصطفى كامل قد طرحه " مصر للمصريين" وجد تعبيره بصـورة رئيسـية عند أفكار وممارسة قائد حزب الوفد سعد زغلول، والكاتب محمد حسين هيكل، والقومي الليبرالي لطفي السيد، الذين كانوا خصوم الفكرة الداعية إلى الحركة الإسـلامية. وقـد لاقـت هذه الفكرة(القومية المحلية) تطوراً منعزلاً من خلال الكاتب الكبير المحدث للأدب العـربي طه حسين، والقبطي سـلامة مـوسى في الدعايـة لفكـرة المصريـة ـ الفرعونيـة والتـي ترجـع (الأحداث) العربية ـ الإسلامية العنصر الأساسي للقومية العربية لصالح فكرة (أفكـار البحـر المتوسط) وقد اتخذت (القومية المصرية) شكلاً ضخماً في عام 1933 في الحزب البورجـوازي الفاشي الذي أسسه محمـد حسـين (مصر الفتـاة) الـذي كـان يتشـابه مـع حركـة الأخـوان المسلمين في فعالياته الإرهابية.

واتجاهات مشابهة كانت هناك أيضا في لبنان وسورية، وعلى أساس ما قام المسيحي المثقف شارل قرم وميشيل شـيحا وسـعيد عقـل الـذين أسسـوا الحركـة الفينيقية التي لاقت الدعم من السياسي اللبناني الموال للفرنسيين أميـل أده قائـد الكتلة الوطنية التي شكلت منظمـة لبنانيـة متطرفـة، وتمثلـت أحـدى منجزاتهـا بتأسيس حزب الكتائـب الـذي أسسـه المسـيحي بيـير الجميـل عـام 1936 وكـان

هدفها الأساسي هو التصدي لمهمة حماية المصالح السياسية والاقتصادية للبورجوازية المارونية.

والآن لم يعد هناك شك، بأن سلسلة من (القوميات) (المحلية) أو (القطرية) كانت قد نشأت في بعض الأقطار، وبعضها كان قوياً. وهنا نذكر فقط الأحزاب: حزب الحركة الوطنية يرأسه الوزاني، وحزب الإصلاح الوطني بقيادة عبد الخالق توريس، والحزب الوطني لتحقيق المطالب يرأسه الفاسي واليزيدي وبلفريج، وحزب فيدرالية المسلمين برئاسة عباس فرحات، ونجمة شمال أفريقيا بقيادة مصالي الحاج في الجزائر، والحزب الدستوري الجديد يرأسه الحبيب بورقيبة في تونس، والوفد المصري برآسة سعد زغلول، وحزب الشعب السوري برآسة الشابندر، وحزب الأخاء الوطني برآسة ياسين الهاشمي في العراق.

ولا يمكن تجاهل الاختلاف في وجهات النظر، التي يمكن وصفها بكونها حقيقية وعميقة، والصراعات الحادة بين الشخصيات القيادية، وبين أنصار هذا الحزب أو ذاك. وبادئ ذي بدء فإن الأحزاب كانت ملتزمة في أهدافها(القطرية والمحلية) وكانت هدامة ومخربة في بعض الأحيان، لأن فعالياتها كانت انشقاقية وتتبع في بعض الأحيان تاكتيكات معينة في المصالح المتناقضة بين القوى الإمبريالية في الأقطار العربية والتي ليس نادراً ما أدت إلى الأضرار بأطراف أخرى في حركة التحرر العربية والفئات الصغيرة بين المواطنين. وقد كانت نسبية مساهمتها في النضال واضحة من أجل إحراز الهيمنة السياسية والاقتصادية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وكان ذلك يشير بوضوح إلى الإخلال بأهمية وضرورة توحيد الجبهة للنضال ضد الاستعمار، بل أنها يسرت بشكل مباشر أو غير مباشر للسياسة الإمبريالية المشهورة فرق تسد Divide et impera

وفي هذه الظروف، بدأت في حوالي أوسط الثلاثينات عملية تحقق متزايدة لاتجاه في المجال النظري والعملي للقومين العرب، يقيم بصفة عامة كفكرة عربية خالصة (وصفت عادة بالقومية) وصل ما يهدف إليه ويتمناه هذا التيار البورجوازي الصغير وكذلك بعض القوى الإقطاعية التي أنظمت إلى هذا التيار في الأقطار العربية، تهدف إلى تحقيق الدولة العربية الموحدة سياسياً، واقتصاديا، وثقافياً.

إن أتباع الفكرة القومية كانوا ماضين إلى جانب ذلك من أجل التغلب على ما أعتبر من قبلهم بالقطرية(الإقليمية) والتي من خلالها تضع الأمة العربية حداً لنتائج قرون طويلة من الاضطهاد الأجنبي وأنها تقاسي الآن اشد الآلام والتقسيم من خلال السياسة الاستعمارية لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والاستغلال والسيطرة حيال واقع يعبر عن الانقسام للشعب العربي.

وأحدى أهم النظريات للقومية العربية التي كانت متأثرة بآراء فيختة Fichte وهيردر Herder وآرنت Arndt، كانت تلك التي تقدم بها السوري ساطع الحصري. ويمكن ملاحظة ذلك في كلماته التالية :" إن الفروق والخلافات التي يمكن ملاحظتها اليوم بين الدول العربية سواء من زاوية اختلاف الإدارة أو التشريع، وفي التأسيسات الاقتصادية، وكذلك أيضا في توجهاتها السياسية فهي جميعاً الإرث الذي تسلموه من الاحتلال. وهي وليدة الإمبريالية". وقد لاحظ أكثر من ذلك بقوله " إن العرب هم أمة واحدة: المصري، العراقي، المغاربة، هم شعب واحد وفرع من الأمة الواحدة، وهي الأمة العربية.".[14] والنضال من أجل الوحدة العربية، ومن أجل ولادة جديدة (بعث) للأمة العربية، كما كتب مكرم عبيد المصري القبطي وأحد ممثلي الفكرة القومية العربية في مصر قائلاً " إن

هدف إقامة الجبهة ضد الإمبريالية هو الدفاع عن القومية، تأمين تطور مستوى الحياة، وتطـور المـوارد الاقتصـادية، وتصـدير المنتـوج الـوطني، وتكثيـف المصـالح المتبادلـة والتنسـيق في العلاقات".[15]

وبادئ ذي بدء عندما يشير المرء إلى نضال الشعوب العربية من أجل حقوقها التاريخية، وعندما تكون الأهداف غير واضحة فإن ذلـك يثـير المنازعـات بـل وأكـثر مـن ذلـك، إذ كثـيراً مـا طرحت حقوق عائلات في السيطرة، مصـالح سياسـية واقتصـادية متناقضـة لقـادة وشخصـيات، بورجوازية وإقطاعية، أضعفت الفكـرة القوميـة وجعلتهـا تعـاني مـن التناقضـات، وهكـذا فـإن الاتجاهات المعادية للاستعمار حتى في هذا التيار(القومي) كانت ظاهرة وملحوظة: فهم انتشلوا بلا ريب قوى حقيقية وكسبوها إلى جانبهم، مساهمة في تنسيق الفعاليات الجماهيرية المعاديـة للاستعمار في بعض الأقطار العربية وفي ذلك تعزيز وزيادة للقوة الضاربة في جبهة النضـال ضـد الإمبريالية.

ولم يكن هناك شك، بـأن تنسـيقاً في نضـال الشـعوب العربيـة المعـادي للاسـتعمار، وبالذات في هذا الوقت، في عشية الحرب العالمية الثانية، أضافت الأهميـة ووفـرت شروطـاً ملائمة نسبياً، بل أن بعض فصائل في حركة التحرر العربية، ومن خـلال نضـالها وتضـحياتها كانت في السنوات الماضية، تمكنت مـن انتـزاع بعـض التنـازلات مـن الإنكليـز والفرنسـيين، ولكن ذلـك لم يكـن ليخـدع أحـداً، بـأن الإمبرياليـة ماضـية بـلا هـوادة في تنفيـذ سياسـتها القمعية الاضطهادية ولا سيما ضد شعب فلسطين، وعدا ذلك، كان هناك خطر الفاشية قد ابتدأ يتنامى بالنسبة للشعوب العربية، ومن جهـة أخـرى كانـت قـد ظهـرت اسـتعدادات ملموسـة للتضـامن العـربي الـذي يسـتحق التطـوير. وهنـا فـإن حالـة دعـم القـوميين

التونسيين لقبائل الريف(مراكش) حيث كانت منذ عام 1937 لقاءات تنسيق بين القوميين المراكشيين والجزائريين والتونسيين. كما كان ما يقرب من الإجماع لكافة فصائل حركة التحرر العربية من أعداء التضامن لنضال الشعب الفلسطيني وكذلك في سلسلة من الاتفاقات بين العديد من أقطار المشرق العربي يمكن اعتبارها خطوات على طريق التقارب السياسي والاقتصادي والثقافي.

وهكذا نشأ في هذه المرحلة لحركة التحرر العربية مقدمات مناسبة لتحقيق الأفكار القومية المثالية أكثر مما كانت عليه في مطلع القرن، تلك التي نجحت في أن تحقق انتشارا وشعبية لها. وكان السوري المسيحي نجيب عزوري (الذي أسس في باريس عام 1904، الجامعة العربية Ligue del la Patrie Arab) قد عبر في كتابه (يقظة الوطن العربي في آسيا) عن تطلعاته لدولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية(1905) التي تشمل مناطق لبنان، سوريا، فلسطين، العراق. وهناك تصورات مماثلة كانت لدى المسلم السوري الكواكبي الذي كان ما يزال يعتبر أن الإسلام عنصر التحام قوي، لذلك فأنه شمل ضمن مشروعه الوحدوي شبه الجزيرة العربية أيضا.

وفي أعوام الثلاثينات، بدأ العديد من البورجوازيين القوميين العرب على هدى هذه الأفكار القومية، التي تضم توجهات واضحة للعداء والاصطدام مع الاستعمار وبهدف إقامة الدولة العربية الواحدة، بدأت النضال ضد الاتجاه الديني الصرف، وغلاة الإقليمية وتوجهاتهم في صفوف حركة التحرر العربية.

وفي مقدمة الجهود الجدية من هذا النوع كان في المؤتمر العربي المنعقد في القدس عام 1931، وهذا الاجتماع الذي حضره قوميون بورجوازيون من

مراكش، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، سورية، فلسطين، والعراق والحجاز، جاء باعتباره رد فعل واضح على المؤتمر الذي عقد في نفس الوقت، وفي نفس المكان من قبل القوى الإسلامية الإقطاعية باسم (المؤتمر الإسلامي)، وقد أظهر بشكل واضح بأن القيادة الرجعية للمؤتمر الإسلامي (كانوا تحت ضغط موظفي وسلطات الانتداب البريطاني)، بذلوا مساعي شديدة في إعاقة إسهام المندوبين من القوميين العرب، وكانت هذه كما في حالة مساهمة عبد الرحمن عزام القومي المصري ومحمد سعيد ودرويش الليبي على شكل لائحة اتهام ضد السياسة الاستعمارية.

وهكذا فقد أصبح مفهوماً بأن القوميين العرب وعلى هامش المؤتمر الإسلامي قد نجحوا في تكوين الشكل المعبر العامل لهم (المؤتمر العربي). ومن النتائج الهامة لهذا الاجتماع هو التوصل إلى (الميثاق العربي) التي تضمنت صياغة لتشكيل دولة عربية مستقلة، والثاني هو التنسيق في النضال من اجل الاستقلال والنضال ضد كافة أشكال الاستعمار في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. وعدا ذلك فقد تقرر التحضير لمؤتمر قومي باسم " مؤتمر الأمة العربية" ولغرض التحضير لذلك تأسست لجنة تحضيرية، وهذه اللجنة قررت أن يكون عام 1933 موعداً لعقد المؤتمر. وقاد المؤتمر السيد ياسين الهاشمي، كما كان من بين الحضور: السوري الشاهبندر، ونبيه العظم وشكري القوتلي وشكيب أرسلان ورياض الصلح ومحمد عزت دروزة. وقد اختير الملك العراقي فيصل الأول كرئيس شرف للمؤتمر.

ومن أجل الاستباق: فهذا المؤتمر كان ينبغي عقده في بغداد والذي كان قد أستثار مصالح إمام اليمن، لم ينعقد، وأحدى الأسباب الحاسمة لذلك كان في

الضغط الشديد الذي مارسته الإمبريالية البريطانية على الأوساط الحكمة، لإفشال مشروع اللقاء القومي العربي المرتقب الذي كان ذا توجهات معادية للاستعمار، ولكن بنفس الوقت لعبت الخلافات في صفوف التحضير لعقد المؤتمر من المشاركين القوميين دوراً مهماً في فشل عقد المؤتمر. وهكذا فقد عبر العديد من القوميين السوريين والفلسطينيين في الشكوك (ولم يكن بعضها مخطئاً) بأن وجود الملك فيصل على رأس المؤتمر القومي العربي هو في المقام الأول أداة من أجل تحقيق سيطرة الأسرة الهاشمية، الأمر الذي سوف يستغل مستقبلاً في ظل الدولة العربية الموحدة.

إن أسباب فشل عقد المؤتمر القومي في بغداد سيجعل من الممكن فهم وأدراك أي صعوبات أضيفت للجهود اللاحقة للمناوئين للفكرة القومية، بالإضافة إلى الفروق الاجتماعية والسياسية، إذ برغم هذا الفشل للفكرة القومية الذي كان له صداه المهم منذ أواسط الثلاثينات في أغلب الأقطار العربية، وقبل كل شيء في أوساط البورجوازية ومثقفي البورجوازية الوسطى، وفي أوساط الطلبة القوميين في أقطار في أقطار المشرق العربي، كانت المحاولات قد بذلت لتأسيس منظمات جماهيرية غير قطرية والعمل الدعائي للفكرة القومية وتأسيس المنظمات والتأثير تدريجياً والتقريب بين الأقطار العربية على بعض الأصعدة الاجتماعية. وفي المؤتمر الطبي التاسع الذي عقد في القاهرة في كانون الأولـ ديسمبر / 1933 الذي كان قد دعا إليه الطبيب السوري القومي عبد الرحمن الشابندر، لاقى الدعم من زملاء مهنته، وأيضا من جمعية "عصبة العمل القومية" وطالبت بخطوات عملية لتحقيق الوحدة العربية.

وفي نفس الاتجاه أيضاً كان تأسيس المؤتمر الطبي العربي، الذي أنعقد للمرة الأولى في بغداد شباط ـ فبراير / 1938 وكذلك في القاهرة كانون الثاني ـ يناير / 1939، وحول محتوى وهدف هذه اللقآت والمطالبات الصادرة عنها في إحداث التقارب الثقافي بين الأقطار العربية. وكواحدة من فعاليات القوميين العرب، وفي هذا الشأن نلاحظ جهود ومساعي القوميين السوريين والعراقيين والمصريين(ممثلين: قسطنطين زريق، فاضل الجمالي، عبد الرزاق السنهوري) الذين بدؤا بالعمل لعقد مؤتمر الطلبة العرب في دمشق عام 1937 بدعم من ابن السعود.

وأولى ذرى المساعي العربية القومية باتجاه تحقيق الأفكار القومية تمثل بدون شك في عقد "المؤتمر العربي" في بلودان وهذا المؤتمر عقد بتاريخ 8 ـ 12 / كانون الثاني ـ يناير / 1937، (بلودان بمصيف سوري بالقرب من دمشق)، وحضره أكثر من 400 من القوميين من كافة الأقطار العربية (باستثناء المغرب واليمن) وانعقاد المؤتمر على أساس المبادرات التي تقدم بها القوميون العراقيون والسوريون. وكان هذا مهماً في مجرى عمل الحركة القومية. وبحلول النصف الثاني من أعوام الثلاثينات، كان النضال الفلسطيني قد ألتهب من أجل الحقوق الشرعية وضد السياسة الموالية للصهيونية التي كانت الإمبريالية البريطانية تنتهجها وكان ذلك مبرراً وباعثاً حاسماً لكي لإنضاج وبلورة الحركة القومية.

ومن هنا نلاحظ بأن المؤتمر سواء كان قد أعد كشكل (لجنة الدفاع عن فلسطين) الدمشقية بقيادة نبيه العظم، أو بأن عموم سير المؤتمر، كانت تسيطر عليه مفهوم وفكرة "فلسطين هي قلب الوطن"، وهي العضو الذي يربط بين عرب آسيا وعرب أفريقيا، ويربط بين شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية ويمثل

الطريق المطل على البحر. ومن خلال فلسطين يقيم العرب الصلات مع العالم المتحضر، ومع عالم التجارة. وعلى المرء أن لا يفكر بأنهم من خلال احتلال فلسطين بالقوة يعني أنهم سيتمكنون من سلبها".[16]

مع أن على المرء أن يلاحظ بما لا يقبل التباس، بأن قضية الشعب الفلسطيني هي قضية عادلة، فإن الرجعية العربية من القوميين الإقطاعيين، كانوا كالغائبين عن مسرح الجريمة حيال الجماهير العربية ليس إلا(بمعنى لا يمكن إعفائهم من المسؤولية حيال الأحداث اللاحقة ـ المترجم) كمبرر لتحقيق مصالح سياسة القوة، لذلك فليس هناك مجال للشك في الحماس الطاغي للقوميين العرب في النضال من أجل عرب فلسطين، فقد شددت من حركة العداء ضد الاستعمار لدى القوميين العرب.

ومن جهة أخرى فقد أوضح مؤتمر بلودان الخلافات وعدم التجانس الاجتماعي والسياسي للحركة القومية. وعلى الرغم من أن المجادلات والمساجلات لبعض الأوساط والأقطار العربية لم تكن بادية ومكشوفة للعيان ولكنها تشير على الأقل إلى حدثين في وجود مثل هذه التناقضات:

الأول: في الصراع على رئاسة المؤتمر، وكان المرشحان، الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، ونوري السعيد العراقي، وقد رفضا المرشح العراقي القومي ناجي السويدي(وهو سياسي عراقي معادي للإنكليز ولنوري السعيد الذي كان على صلة وثيقة مع الهاشميين وفيصل) وقيادة المؤتمر تعبر عن ثقل المحافظين الذين كانوا على صلة وثيقة بسياسي القوى الإقطاعية ومن بين هؤلاء كان نوري السعيد وشكيب أرسلان، الذي كان يقف قريباً من الملك المصري، والشخصية المعادية للوفد المصري محمد علوبة، وأسقف كنيسة أرثودوكسية ـ اليونانية في

حمص اكنازيو خورويكا Ignazio Hurraika ، ورئيس تجار بيروت عمر الداعوق وكذلك الحزب الفاشي(الحزب القومي السوري، وممثلي حزب الشعب السوري فؤاد مفرج.

الثاني: الجدال حول طلب سعيد الحاج ثابت (رئيس اللجنة العراقية للدفاع عن فلسطين) بإدانة الأنظمة الملكية العربية حول دورها السلبي حيال نضال العرب الفلسطينيين، وقد رفض هذا الطلب بعد إلحاح من الدرزي شكيب أرسلان.

وواصل مؤتمر بلودان تطبيق الأفكار والممارسات القومية التي كانت تمثل مؤشراً قوياً وأعقبه الكثير من الفعاليات القومية التي كانت واضحة في مساعيها، وهو تحقيق مزيد من الخطوات للتقارب بين الدول العربية بهدف توحيدها أخيراً. والمؤتمر البرلماني الدولي الذي عقد في القاهرة من تشرين الأول ـ أكتوبر / 1938. وفي العام نفسه عقد مؤتمر المرأة العربية والطلاب العرب في الخارج، وتأسست لجان تطالب بوضع الأفكار للوحدة العربية، ومن تلك "جمعية الوحدة العربية"التي أسسها علوبة في القاهرة في نيسان ـ أبريل / 1930. وفي هذا المجال ينبغي الإشارة إلى أن التيار القومي ومنذ نهاية أعوام الثلاثينات(كان يمثله عبد الرحمن عزام، مكرم عبيد، والكاتب المازني) وكان لهم نفوذ كبير في مصر. وفي مطلع الأربعينات ألتزم العديد من مثقفي البورجوازية الصغيرة ومن أبرزهم: ميشيل عفلق، زكي الأرسوزي، صلاح الدين البيطار، في حركة أطلقت على نفسها (حركة البعث)التي تأسست في سوريا ولبنان. أما في المغرب، فقد أخفقت الأفكار القومية رغم الجهود التي بذلها القوميون في شمال أفريقيا مثل: الفاسي،

اليزيدي، الوزاني، ومصالي الحاج، والثعالبي، وصلاتهم مع شكيب أرسلان، واتصفت مواقفهم ببعض التردد.

وفي النصف الأول لأعوام الأربعينات، أنظمت قوى يمكن أن تحسب على البورجوازية والإقطاع، أنظمت على المساعي من أجل الوحدة في مرحلة مهمة. وكانت شخصيات من الأنظمة الإقطاعية البورجوازية في الشرق الأوسط ومثقفون قد بدأوا الآن بتقديم دعم (ولم يكن ذلك بدون موافقة مباشرة أو غير مباشرة من الإمبريالية) جهودهم في التوصل (في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية) إلى خلق رابطة للدول العربية وفي ذلك كانت الأقطار العربية في المشرق تتأرجح في تلك المرحلة في سياستها بين مختلف المجاميع البورجوازية والإقطاعية وكان ذلك واضحاً خصوصاً بين أنصار الأسرة الهاشمية، والأسرة السعودية الهادفة إلى السيطرة.

وفي عام 1943 طرح نوري السعيد بأسم النظام الإقطاعي الهاشمي في العراق وبموافقة الإمبريالية البريطانية فيما يسمى "الكتاب الأزرق" مشروع سورية الكبرى ومركزها العراق، هذا المخطط الذي يشكل من : العراق، سورية، لبنان، شرق الأردن، دولة موحدة وأقترح لها الملك الهاشمي. ولكن ذلك أصطدم بمشروع سورية الكبرى، ومؤسسة المسيحي أنطون سعادة الذي أسس عام 1932 الحزب القومي السوري، الذي كان متأثراً بالفينيقية، وتحت شعار " سورية، سورية، فوق كل شيء" وإن انبعاثاً (عصر نهضة) سيقوم على الكنعانيين، الآراميين، الاشوريين، الكلدانيين، الأكديين، لتشكيل الأمة السورية الكبرى التي تمتد من طوروس وحتى سيناء، ومن البحر المتوسط حتى نهر دجلة. وفي ذلك لم تجد تلك الفكرة إلا دعماً قليلاً. ومن جهة أخرى: تدخلت

التناقضات الهاشمية الداخلية من خلال الأطماع السياسية في السلطة وقد شجعت الأوساط الإمبريالية أمير شرق الأردن عبدالله بن الحسين في محاولاته تلك. وهذه المطالبة بعرش الدولة العربية الموحدة التي يجري البحث عنها والنضال لتحقيقها لم تجد في أوساط القوميين العرب الدعم والمساندة المأمولة على الرغم من أن عبد الله كان عام 1937 قد تلقى الدعم من رئيس غرفة التجارة العربية ـ الفلسطينية فخري النشاشيبي(قومي رجعي) مؤسس حزب الأمة العربية بوصفه أداة لتحقيق مصالحة وأهدافه، وكان في تصورهم أن دولة عربية موحدة في سورية الكبرى وبقيادة فيصل بن الحسين سيلقى التأييد الشديد حتى في أوساط قومية أخرى كمصر على سبيل المثال، وقد أدى السعوديون من مقرهم في الرياض مقاومة شديدة لهذا المشروع.

وفي هذه الظروف من تصادم مصالح السلطة السياسية بين المجاميع الإقطاعية البورجوازية ذات النفوذ الواسع في الشرق الأوسط، ومن خلالها أثرت على الاتجاهات المعادية للاستعمار في سائر التيارات القومية الأخرى أكثر فأكثر، والآن يباشر ممثلوا الأوساط الحاكمة في مصر إلى اتخاذ المبادرات. واستناداً إلى حديث وزارة الخارجية البريطانية أنطوني إيدن أمام مجلس العموم البريطاني في 23/ شباط ـ فبراير/1943، والتي عاد فيها وكرر على المصالح البريطانية في تكوين كتلة من القوى الرجعية والدول في الشرق الأوسط، وفي 30/ آذار ـ مارس من لنفس العام أعلن وزير العدل المصري صبري أبو علام " منذ أن تقدم السيد أيدن بإعلانه فأني قد أدليت بموقفي، وقد كان لي رأي وهو أن الأمر ينبغي أن يدرس رسمياً من الحكومات العربية. وفي الختام سيكون مفضلاً لو قامت الحكومة المصرية بنفسها اتخاذ المبادرة الرسمية على هذا الطريق. وفي البدء يجب الأخذ بنظر الاعتبار رأي كل حكومة عربية من أجل استخلاص ما

نهدف إليه. ثم أن على الحكومة المصرية أن تجتهد في أن تجمع كل وجهات النظر قدر الإمكان وتوحدها". (17)

وبدعم العديد من القوميين السوريين واللبنانيين، أنظم زعيم الوفد مصطفى النحاس بناء على ذلك سلسلة من المحادثات مع ممثلي الأقطار العربية المشرقية، والتي في ختامها أدت إلى انعقاد مؤتمر الإسكندرية الذي استمر من 25/ أيلول ـ سبتمبر إلى 7/ تشرين الأول ـ أكتوبر / 1944، وساهم في أعماله ممثلون عن: سورية، شرق الأردن، العراق، لبنان، مصر، ثم الاتفاق على بروتكول تأسيس الجامعة العربية. وفي 22 / آذار ـ مارس / 1945، أقرت تشكيل لجنة تحضيرية " المؤتمر القومي العربي " في القاهرة(حلف جامعة الدول العربية) والذي وقع عليه من قبل وفود: سورية، شرق الأردن، العراق، العربية السعودية، لبنان، مصر، ثم أنظمت إليها اليمن بعد شهرين من هذا التاريخ.

ومن جهة أخرى، كان قد أصبح واضحاً بأنه قد يستبعد رؤية نتائج تطبيق الأفكار والممارسات القومية، وكانت أيضاً العناصر التي تعمل للإقليمية (القطرية) تتنافس وتطرح تناقضات في الحركة القومية، وأنه من الممكن أن يكون العديد من المفكرين والعاملين في الحركة القومية كانت ترافقهم أمنيات ذاتية. ومن خلال تأثيرهم ومساعيهم لإضعاف وحدة الصف والقوة الضربة لحركة التحرر القومية، وأن التنفيذ العملي للأيديولوجية القومية تظهر (وهنا تبدو وتتضح التناقضات في هذا التوجه) بأن القوى للإقطاعية والبورجوازية، والبورجوازية الصغيرة، ومن خلالهم يجري العمل من أجل تحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في إضفاء النزاعات الاجتماعية الكامنة خلف الأقنعة أو في إزاحتها.

وهذا التطور جرى تطبيقه حيث تمكنت البورجوازية من السيطرة على حركة التحرر القومية، واحتلال مواقع وإمتيازات سياسية واقتصادية. ومن أجل تأمين توسيع هذه الإمتيازات، فأنها سعت ولا سيما الأفكار الأساسية في(الاندماج ـ التكامل القومي)، التي اشتدت كوسيلة لخلق علاقات (السلام الاجتماعي) في المجتمع والترويج لما كان رشيد رضا يعمل له دعائياً، وهي فكرة (التوافق والانسجام الطبقي) وكذلك الادعاء بوجود (طريق ثالث) بين الرأسمالية والاشتراكية التي تلتحم بالنضال من أجل التحرير القومي بصورة لا تقبل الانفصام لتأمين وتحقيق أمنيات وآمال معظم الفئات والطبقات المضطهدة. وقد أوضح عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية بدون غموض والتباس، عندما أعلن في أواسط الأربعينات قائلاً " نحن نعترف بالفروق الطبقية، الأغنياء أو الفقراء، الضعفاء أو الأقوياء هم في درجة واحدة بنظرنا، ويقفون على درجة واحدة من نظامنا الاجتماعي، ونحن نرفض هذه الظاهرة الجديدة، صراع الطبقات الذي ينبغي علينا أن نجد له علاجاً فعالاً".(18)

وبالنظر لما يمثله لطفي السيد كإستثناء بين الليبراليين المصريين والذي قصد من خلاله الاشتراكي والبورجوازي الصغير سلامة موسى حيث قال " إن الاستقلال وحده لا يكفي، وإن أمة مستقلة متخلفة، سواء في حكوماتها أو هيكلها الاجتماعي، لا تحيا حياة كريمة".(19)، وهكذا يلاحظ بصورة عامة، بأن أيديولوجي وسياسي القوميين، كانوا من الساعين لإحداث (تغير)(للمسألة الاجتماعية) في وعي الجماهير. وعلى هذا الصعيد كان الزعيم الوفدي سعد زغلول قد تطرق إلى ما يشبه ذلك فيما يخص منع نشاط الحزب الشيوعي المصري عام 1924 حيث أعلن : إنني لست مع أولئك الذين يتناقشون حول

القضايا الاجتماعية، وأنا شخصياً لا ألتفت إلى الشيوعية أو أهتم بها، أو بالبلشفية، ولا أخشى فيما إذا كان كلاهما يتعايش مع حياتنا الاجتماعية، وليس لدى أي شعور بالخوف من ذلك".[20]

وموقف كهذا كان قد ظهر لدى القوى التوفيقية المتنامية من البورجوازية القومية وأحزابها حيال الاستعمار والرجعية المحلية، أبرزت بل بالأحرى فهي أكملته موضوعياً وجعلته أكثر ملائمة ومناسبة لفعاليات الديماغوجية الاجتماعية ومجاميع المتطرفين أو القوميين التقليديين كمنظمات الأخوان المسلمين ومصر الفتاة الفاشية، والحزب القومي السوري، وليس أخيراً كرد فعل على النفوذ المتزايد للأفكار الاشتراكية التي تلقتها البورجوازية كصدمة. وهذا ما يمكن ملاحظته وبصفة خاصة بعد تأسيس الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية وكذلك ما له علاقة بالفعاليات العاجلة للاشتراكيين من البورجوازية الصغيرة من القوميين في سياستهم المعادية للاشتراكية التي تحولت إلى موقف أساسي لديهم. وقد كان يكفي هنا التأكيد على (حلف غير مقدس) مع الأيديولوجية الاستعمارية الأوربية، وكذلك الرجعية الإسلامية واللاهوتيين المسيحيين، والإشارة إلى موقف شكيب أرسلان والثعالبي، التي تؤكد على " مقاومة البلشفية" لأن، وكما يذهبون فبأمثلتهم الديماغوجية بأن " الخطر الشيوعي هو أكبر من خطر الاستعمار".[21] ومثل هذه البيانات كانت سياسة مبرمجة للعديد من الأحزاب البورجوازية القومية في الأقطار العربية في تلك الأوقات وأيضاً نذيراً للمواقف القومية المعادية للشيوعية في الوقت الحاضر.

وفي الظاهر أن اتجاهات التطور هذه للبورجوازية الناشئة وللقوميين من البورجوازية الصغيرة في الأقطار العربية، كانت حتى في هذه الحالة المادية

الملموسة، قد شملت بدون شك عموم ديالكتيك هذه الظواهر كقواعد، تعامل الشيوعيون معهم حسب التعاليم اللينينية، سواء من حديث شروطها وظروفها التاريخية، أو من خلال نسبية تقدميتها. وهكذا كان على الشيوعيين " اللقاء مع الحركة البورجوازية القومية التي تتحرك ضمن هذه الشعوب وما يدور فيها من حتمية، وأن تقف منها موقفاً تاريخياً".[22] وكان عليهم مسؤولية " الحذر والاحتراس بصفة خاصة وملاحظة واعتبار المشاعر القومية الحيوية الحساسة في أقطار وشعوب طال اضطهادها" و " وتقديم قدر من التنازلات ليتم بذلك تخطي وتجاوز أزمة الثقة والأحكام السريعة".[23]، إذ أن كل " حركة قومية بورجوازية لأمة مضطهدة لها محتوى داخلي ديمقراطي عام، هي مكرسة ضد الاضطهاد ونحن ندعم هذا المحتوى بالتأكيد".[24]، وأنها مسألة تقدمية " استيقاظ الجماهير من النوم الإقطاعي، والنضال ضد الاضطهاد القومي والوطني من أجل سيادة الشعب الذي هو ضمن واجبات ومسؤوليات الماركسيين في المشاركة بجميع القضايا القومية الحاسمة والمهمة، وهذه مسألة رئيسية في الواجبات السلبية ولكن لا يجوز أن تمضي البروليتاريا إلى أبعد من ذلك في دعم القضايا القومية، إذ تبدأ بعدها بالعمل الإيجابي والذي يؤدي إلى تقوية البورجوازية القومية".[25]

ثالثاُ : الأفكار الاشتراكية

في الصفحات الماضية، لاحظنا ولعدة مرات، ظاهرة أستهين بها في الأبحاث العلمية البورجوازية، أو أنها لم تلاحظ أصلاً: هي أن الحركة البورجوازية المبكرة في الأقطار العربية، وبصورة مشابهة لمثيلاتها من التيارات الأيديولوجية الرئيسية التي مر ذكرها في مرحلة الصراع مع الاستعمار والتي يعود تاريخها إلى الأفكار الاشتراكية البورجوازية الصغيرة في القرن التاسع عشر،

وهي في صلة لا تقبل الانفصام مع حركة النهضة المبكرة للبورجوازية العربية في من جهة تمثل مع سائر الأفكار التاريخية(وأيضا الاشتراكية وبالدرجة الأولى الأفكار ما قبل الماركسية. وعلى الأغلب في الأقطار العربية المشرقية ومصر، ثم بدأت تشد إليها المثقفين العرب، ومن جهة أخرى فقد حملت النهضة الكثير معها والتي كانت باستمرار تعمل على تحضير الأرضية لمثل هذه الأفكار التي كانت تزيح بخطوات منتظمة ما يقابلها ويقف أمامها من عوائق أفكار دينية غامضة. ومن هذا الموقع وبتأثير الشخصيات المؤثرة على النهضة كالمصري رفاعة الطهطاوي، الذي كان متأثراً بنظريات سان سيمون Saint Simon وبرودون Proudhon .

وكانت المحاولات تبذل لتطوير الحركة الاشتراكية البورجوازية الصغيرة في الأقطار العربية بصورة منتظمة، وهكذا كان هناك ضمن المرحلة المعادية للاستعمار، ثلاث مراحل مختلفة، وفيما كانت المرحلة الثالثة متطابقة مع المهلة الزمنية التاريخية التي تبحث عنها.

والمرحلة الأولى بدأت في نهاية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر وأنتهت حوالي عام 1905 وهذه المرحلة تميزت ابتداء من خلال حملة الأفكار الاشتراكية المجهولين، ومن خلال تشخيصاتها غير الدقيقة، والمعنوية ذات الطابع التجريدي، وعلى الأغلب أفكار اشتراكية غير ماركسية، لفورير Fourir وأوين Owen، وسان سيمون، وبلانك Blanc، ولاسال Lassalle، وباكونين Bakunin، وكروبوتكين Kropotkin، ومن خلال عزل الحركة الاشتراكية الفتية عن الشغيلة وعدم تنظيمها وكذلك محدودية انتشارها بين قلة من المثقفين. وفوق ذلك يبدو أنها اقتصرت على بلدان المشرق العربي ومصر، رغم الموقف الأخير

للأبحاث التي نشرتها الصحيفة القاهرية(المؤيد) عام 1890 استنادا إلى الاقتصاد السياسي لكارل ماركس حيث نشرت رسالة قارئ مغفلة التوقيع بعنوان " كيف تسعد البلاد وتثرى"، تدافع فيها عن الاشتراكيين العرب، ولم يكن هناك نشر لنشاطات المفكرين الاشتراكيين. ويجب أن نفترض بأن في أعوام الثمانينات كانت مثل هذه الأفكار قد وجدت المريدين والأتباع. وابتدأت تنشر في حزيران ـ يونيو/1889 في المجلة المصرية ذات النفوذ الواسع "المقتطف" و" الهلال" و "بتوءدة وحذر لمشروعهم الذي لما يزل ضعيفاً" فيما اشتدت حملة العداء للاشتراكية في المقالات التي كانت بعنوان " الغني والفقير" و " فساد مذهب الاشتراكية" و " ضرر الاشتراكية " التي كانت للشخصية المعادية للاشتراكية في مصر يعقوب صروف (وهذا من السماء اليهودية الشائعة في مصر ـ المترجم). وإلى جانب ذلك، فالمقال(الذي نشر على أنه رأي عالم شريعة إسلامي) يعتقد أنه لجمال الدين الأفغاني الذي نشر في نفس العام مقالاً (باسمه الصريح) يوضح بصورة مبكرة، طبيعة الحملة المعادية للشيوعية من فبل المحدثين الإسلاميين.

في المرحلة الزمنية بين 1907/1905، وأكتوبر ـ تشرين الأول/ 1917، تأسست الشيوعية الدولية. وكانت الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية، هي المرحلة الثانية في تطور الحركة الاشتراكية البورجوازية الصغيرة. وهي متمثلة قبل كل شيء بتجاوز مرحلة (السماء المجهولة) من خلال تنظيمات سياسية للقوى الاشتراكية(تأسس الحزب الاشتراكي المبارك عام 1908) الذي لم يدم إلا فترة قصيرة، وكذلك النفوذ التدريجي المتزايد للأفكار الماركسية اللينينية على الحركة الاشتراكية العربية. وفي هذه المرحلة فإن للأفكار اللينينية أهمية خاصة، والتي كانت على أثر يقظة شعوب آسيا وتطورهم في الحياة السياسية خلال

الحرب الروسية ـ اليابانية، والثورة الروسية 1905، اكتسبت منها قوة شديدة".[26]

ويقرر رفعت السعيد " بأن ثورة 1905 كان لها صداها المهم في مصر" وإن هذا النفوذ لم يتحدد " على الانعكاس الروحي للـهزة الثورية للشعب الروسي" بل وأيضا بأوثق الأشكال المادية في التلاحم.[27]، واليوم لم يعد هناك شك بأن الثورة الروسية لعام 1905 قد ألهمت بقوة وبصورة مباشرة أو غير مباشرة ممارسات المثقفين التقدميين في المشرق العربي، كما أنها شجعت الاشتراكيين على توسيع دعايتهم وقيادتها بصورة منتظمة، وأن تجد الأفكار الماركسية اللينينية لنفسها المكانة في أفكارهم.

وفي هذا المجال نلاحظ ازدهار نوعي وكمي في الحركة الاشتراكية العربية الفتية التي وجدت التعبير عن نفسها في أعمال المثقفين من البورجوازية الصغيرة: شبلي شميل، سلامة موسى، محمد حسنين المنصوري، ونقولا حداد، وأهميتها تكمن بالدرجة الأولى بالشجاعة والجرأة المدهشة ضد " الحماقات التي تروى عن الاشتراكية" .[28] وقيامها بالتصدي وبنشر ما تتعرض له الاشتراكية من تشويه للنضال الذي خاضته في هذا المجال.

إن القيمة الشاملة لفعالياتهم ينبغي أن تميز بشكل مادي ملموس، لذلك فليس من الممكن تجاهل أعمال النشر النشيطة التي ظهرت لشبلي شميل وسلامة موسى للأفكار الماركسية اللينينية. وبينما كان شميل تحت تأثير أفكار الثورة الفرنسية ومادية العلوم التطبيقية لهكسلي Huxley، و ل. بوخنر L. Buchner ، وهايكل Haeckel ، ونظرية النشوء والارتقاء لداروين Darwin،

وأخيراً سبينسر Spencer، وما بني على ذلك من مادية ابتدائية وملاحظات حيوية، بأن الاشـتراكية تتحقق كنتيجة لعملية ارتقـاء وتطـور، وبهـذه الأنشـطة، شـارك سـلامة مـوسى في موقفـه هـذا بارتباطه مع الفابية(الاشتراكية الفابية) ويطرح المرء في الأخـير الحسـاب (الفـاتورة) بـأن فاعليـة كليهما (كما بالمناسبة أيضا المنصوري وحداد) كان عملاً فردياً ظل معزولاً عن جماهير الشـغيلة. وهكذا كانت المحاولة اقرب إلى المبالغة في تقدير للقدرات الحقيقية لهذه الشخصـيات. وبـرغم أن الظروف الاجتماعية الموضوعية المحددة لقدراتهم المعرفية والفاعلية السياسية العمليـة فـإن الفعاليات الذاتية وجهود الطبيب اللبناني شميل تستحق الاحترام.

وبسبب عدم الإحاطة التامة، أو سوء فهم للمادية التاريخية التي انتشرت وناضلت ضـد المثالية الاشتراكية(اليتوبيا) Utopie ضـمن ظـروف الحملـة المعاديـة للاشـتراكية وشروط المثاليـة الدينية المتطرفة، لإعطاء أساس علمي، كانـت المسـاعي الحثيثـة للقبطـي المصري سـلامة مـوسى تستحق الذكر، والذي تابعتـه السـلطات الاسـتعمارية البريطانيـة، والرجعيـة المصريـة بالدعايـة لأفكار الوحـدة والتحـرر الـوطني الاجتماعـي و " أول تحليـل لطبيعـة الرأسـمالية وأسـاليبها في الاستغلال وصيد الأرباح".[29] في مصر، ونشرت ووزعت في الأقطار العربية.

وهـذه المـآثر تسري أيضـاً بـدون شـك عـلى الأفكـار الاشـتراكية للمنصـوري وحداد مع أنه كان دوراً خاصاً بين الاشتراكيين في ذلـك الوقـت. وبصـورة مختلفـة عن شميل وموسى اللـذان كانـا يعمـلان بجديـة مـن خـلال نشر أعمالهـا في شرح وإيضاح وتوسيع الأفكار الماركسية ـ اللينينية في شـمال أفريقيـا والشرق الأوسـط، وهكذا نجح المنصوري بإيصال كتاب أنجلـز " "تطـور الاشـتراكية مـن اليتوبيـا إلى

العلمية" و "تـاريخ المـذهب الاشـتراكي" في عـام 1915 الـذي مثـل أول محاولـة لعـرض القـوانين الأساسية للماركسية وتاريخها في اللغة العربية.[30]

وإلى جانب ذلك قام معلموا المدرسة الثانوية في بلدة طـوخ(مصر) بعمـل ينطـوي عـلى الجرأة والشجاعة في ذروة العمل القومي بالدفاع عن الماركسية أمام اتهامات العنـاصر القوميـة بنفس الصفة الوطنية. وقد قام حداد وهو متأثر كثيراً بالحركـة الاشـتراكية في الولايـات المتحـدة الأميركية بقيادة ي. ديب E. Deb (بصرف النظر عن النوعية التي لا يرتقي لها الشك في فعالياته ودعايته ذات العمق للاشتراكية، وفعالياته السياسية المهمة التي بلغ شعاعها إلى أقطار المغرب).

ومن بين الاشتراكيين كان الشيخ العربي التفتازاني بدفاعه الذي لا هوادة فيه عـن الأفكـار الاشتراكية وهجمات الجماعات الإسلامية الرجعيـة، ولكـن مـن خـلال عجـزه مـن التغلـب عـلى شكوكه وتردده حيال الحركة الثورية، تراجع عـن مواقفـه السياسـية العمليـة المسـاندة للطبقـة العاملة، وتحول إلى مثقف منعزل.

وثورة أكتوبر الاشـتراكية العظمـى وتأسـيس الشـيوعية الدوليـة والأحـزاب الشـيوعية في البلـدان العربيـة، هـي التـي تولـت قيـادة المرحلـة الجديـدة وفي نوعيتهـا في ذات الوقـت في عمليـة تطـور الأفكـار الاشـتراكية وهـي بالدرجـة الأولى اتصـفت وتميـزت بكـون الأيديولوجيـة الماركسية، اللينينية قد بدأت تشكل وعياً وتنظيماً داخل حركـة التحـرر. وفي هـذا المجـال يؤكـد المسـتعرب الفـرنسي جـال بـيرك Jacques Berque، " بـأن حركـة العـمال البريطـانيين كـان لهـا دورها المهم لعبته في العلاقات بين المغرب، ومصر، وبلدان المتروبـول، وكـذلك في بنـاء القيـادات

الوطنية. فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى، مارست الدولية الثالثة دوراً يتسم بالأهمية البالغة، فقدمت للقسم الأعظم من هذه الشعوب النموذج الفعال " وأنهم قد وضعوا الأساس من أجل أن تكون الماركسية ـ اللينينية والاشتراكية أكثر قبولاً للشعوب المسلمة وهي حقاً كذلك".[31]

إن انتصار الطبقة العاملة الروسية في أكتوبر / 1917 وكذلك الانتفاضة الثورية للبروليتاريات الأوربية الأخرى كانت تنطوي بصفة ملموسة على توسع للأفكار الماركسية اللينينية وحركة التحرر العربية. وكان الجنود الجزائريون في الجيش الفرنسي قد قاموا خلال انتفاضة البحارة الفرنسيين عام 1919 في أوديسا، أو في خلال استخدامهم الارغامي ضد جمهورية الإنقاذ المجرية، وأقاموا الصلات مع ثوريين روس ومجريين.

وكما تعرف العرب الذين كانوا مرغمين على الخدمة في الجيش التركي، والذين كانوا في فترة أسرهم لدى الجيش الروسي، على الأفكار الثورية والماركسية اللينينية، وكان عدد كبير من المثقفين العرب والعمال الذين أقاموا وعاشوا في ألمانيا مثل: حسين الرحال، وهو من الشيوعيين العراقيين الأوائل) وعاصروا ثورة نوفمبر ـ تشرين الثاني، وعند عودة هؤلاء إلى أوطانهم كانوا ينظمون إلى أية فعالية ثورية مع أبناء بلادهم بل ويكونون هم أبرز عناصر تلك الفعاليات الثورية وللبروليتاريا، وكانوا يستخدمون(بدرجات متفاوتة) الأفكار الماركسية اللينينية في مجرى ذلك النضال، وأن قسماً منهم قرر الانضمام إلى الخلايا الماركسية، بل أنهم في حالات عديدة قاموا بأنفسهم بتأسيسها (بعد ثورة أكتوبر) التي نهضت في الأقطار العربية، كما في الجزائر على سبيل المثال عام 1919. بينما تطورت في غضون ذلك مجاميع وأحزاب البورجوازية الصغيرة

الاشتراكية التي تأثرت بالأفكار الماركسية اللينينية، وهكذا تأسست عام 1922 على يد مثقفين لبنانيين تقدميين حلقة " الصحفي التائه" ومنها تأسس بعد بضعة سنوات حزب الشعب بمساهمة فعالة من الشخصية الاشتراكية آ. يعقوب.

وفي عام 1921 نجح الاشتراكيون المصريون(وبينهم سلامة موسى، وحسني العرابي) بتأسيس حزب الاشتراكيون المصريون، وشبيهاً له تأسس في العراق عام 1931 جماعة اشتراكية من البورجوازية الصغيرة باسم (جماعة الأهالي) من ماركسيون وفابيون، متعاطفون مع الدولية الثانية واعتبروا أعضاء فيها.

وفي سنوات العشرينات والثلاثينات كانت قد نهضت أخيراً في أغلب الأقطار العربية الموجودة (من خلال عملية تنوير سياسية وأيديولوجية وتنظيمية معقدة) من منظمات اشتراكية ـ بورجوازية صغيرة. وهنا وفقط بالإشارة إلى المقال الذي طرحه الحزب الاشتراكي المصري الذي تقدم بطلب الانتماء إلى الشيوعية الدولية عام 1922، وعندما تطور الحزب الشيوعي المصري في نضاله ضمن حركة التحرر الوطنية.

خلق تأسيس الأحزاب الشيوعية في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، شروطاً جديدة من أجل تنظيم وتوسيع مطرد للتعاليم الماركسية اللينينية في حركة التحرر العربية. وسواء بتأثير التضحيات والالآم في النضال من أجل التحرر القومي والاجتماعي للشعوب العربية، التي نال بموجبها الاحترام والاعتراف بين صفوف الشغيلة، أو بواسطة العمل الأيديولوجي الذي ساهم فيه الشيوعيون العرب والتي بموجبها تمكنت الأفكار الماركسية اللينينية من

ترسيخ مواقعها في صفوف الطبقة العاملة ضمن حركة التحرر، وفي هذا الوضع كان عملهم النظري والدعائي مهماً.

ومن خلال ترجمة الأعمال الكلاسيكية للماركسية للينينية إلى اللغة العربية، ونشر العديد من الوثائق المهمة للحركة الشيوعية العالمية، وكذلك نشر أعمال لينين لاسيما: " الدولة والثورة" و " مالعمل" و "اليساريون الراديكاليون"، و "مرض الطفولة الشيوعي" ودراستها، وكان كل ذلك في الظروف الصعبة والمعقدة، يعد مساهمة رائعة من الشيوعيين العرب في الدعاية للأيديولوجية البروليتارية ضمن حركة التحرر.

إن الأعمال النظرية لممثلي الأحزاب الشيوعية العربية الأوائل(خالد بكداش، ونقولا الشاوي، ويوسف سلمان يوسف(فهد)) بصدد موضوعات مثل الشيوعية والوطنية، الإسلام أو المسألة القومية، لم تمثل مواقف الشيوعيين إزاء مشكلات مهمة من حركة النضال التحرري الوطني والقومي، بل وأكثر من ذلك، كونها شكلت مساهمة ثمينة لتطور الأفكار الماركسية اللينينية.

وفي هذا المجال ينبغي الإشارة أيضاً إلى فعاليات الشيوعيين العرب في النضال ضد الخطر الفاشي الداهم. وكمثال ساطع على ذلك، كان "مؤتمر مكافحة الفاشية" الذي عقد في بيروت للفترة من 6ـ8/ أيار ـ مايو/1939 بمبادرة من الشيوعيين السوريين واللبنانيين. وأدار هذا اللقاء أنطوان ثابت رئيس عصبة مكافحة الفاشية والذي حضره أكثر من 200 من ممثلي المنظمات السياسية والنقابات والإتحادات الثقافية والرياضية. وقد أثبت هذا اللقاء بصورة مقنعة، سياسة التحالفات الماركسية اللينينية للشيوعيين العرب.

وإلى جانب فرج الله الحلو وخالد بكداش، كان هناك أعداد كبيرة من وطنيين وقوميين سوريين ولبنانيين، وممثلين لجماعات فكرية مختلفة من بينهم قريب للبطريك الماروني. وقد تلقى المؤتمر رسائل وإشارات مهمة من قادة الحركة الوطنية السورية مثل شكري القوتلي وناظم القدسي ولطفي الحفار وفائز الخوري وجمعية التمدن الإسلامية واتحاد المرأة السورية، وكذلك من الوطنيين والقوميين الليبيين الذين يعيشون في دمشق كلاجئين.

وأخيراً، كانت الأعمال السياسية والفكرية للشيوعيين العرب التي يمكن وصفها بأنها أبرزت ممثلي البورجوازية العربية من القوميين، وبصفة خاصة المراكشيين: الفاسي، اليزيدي، الوزاني، والتونسي بورقيبة، وآخرين كانوا على صلة مع الأحزاب الشيوعية كالحزب الشيوعي الفرنسي، ومساهمة القائد المصري رمضان، والشاذلي خير الله أحد قادة الحزب الدستوري الذي كانت له مساهمته في العصبة المعادية للإمبريالية. ودون شك فإن هذه الظواهر تمثل شواهد على النفوذ المتزايد للأيديولوجية الماركسية اللينينية في حركة التحرر العربية في تلك الفترة.

ومما يستحق الملاحظة، أن ذلك كان يمثل في نفس الوقت يمثل احتدام النضال الأيديولوجي في الأقطار العربية، إذ طرحت نفسها بوصفها واحدة من المركبات الجوهرية للحملة المحتشدة للقوى المعادية للشيوعية في مختلف الأشكال والألوان ضد النفوذ المتزايد للاشتراكية العلمية، وضد من يحمل هذه المعتقدات والمتعاطفين معها، وبنفس الوقت شن هجمات مركزة، صعدت فيها قوى اليمين القومي، وشخصيات روحية رجعية، ومروجين للأفكار الاستعمارية.

وبصفة خاصة في هذا الوقت حيث كانت هناك قوى إصلاحية اشتراكية من جماعة الدولية الثانية، وكذلك في مطلع أعوام الثلاثينات وإيديولوجيون فاشيون باشروا بشن الهجمات على الأفكار الاشتراكية.

وتحت ظل هذه الظروف المعقدة سياسياً وأيديولوجياً، والتي كان من جملتها أيضا مشكلات التطور للأحزاب الشيوعية العربية، أتخذ الاشتراكيون من البورجوازية الصغيرة موقفاً ينطوي على تناقض فائق للعادة، وعلى الرغم من المحاولات العديدة لتنظيم نفسها، وعلى الرغم من أنها في حالات كثيرة وبجهود ذاتية سعت للقارب من الماركسية اللينينية وإعلان مواقفهم النظرية والسياسية، ولم تنجح أغلب القوى الاشتراكية ـ البورجوازية الصغيرة في تجنب اتخاذ المواقف من القضايا الحاسمة المعادية للشيوعية. وفي هذا المجال فإن مغادرة سلامة موسى وآخرين من الاشتراكيين غير الماركسيين للحزب الاشتراكي المصري عام 1922 عندما قدم الحزب (وقد مر ذلك) طلباً للإنضمام إلى الشيوعية الدولية، وأيضاً الاشتراكي المصري عصام الدين حنفي ناصيف (الذي كان متأثراً بعمق بالحركات الثورية في ألمانيا)، كان قد أكد تعاطفه وتأييده للأفكار الماركسية اللينينية، ولكنه لم ينجح أخيراً في أن يكون (اشتراكياً من الضمير) ونبذ تردده وقلة الثقة حيال الطبقة العاملة والتغلب على توجهات المثقفين لديه، والاشتراكي التونسي الترادنيوني(الترادنيونية حركة نقابية بورجوازية ـ المترجم) وداعية حقوق المرأة طاهر حداد[32] الذي لم يكن بوسعه التميز والإدراك بشكل دقيق وفئوي، وليس هناك "بواعث لتبرير الصراع الطبقي".[33]

ومن أجل تمتين الروابط الأيديولوجية لأغلب الاشتراكيين من البورجوازية الصغيرة مقابل مبادئ الاشتراكية الإصلاحية والقوميين، والتناقضات السياسية / الأيديولوجية العميقة في منظماتهم، وفي تشتتهم (وفي ذلك يكفي أن نتذكر مصير جماعة الأهالي) ومهدت الطريق إلى ما يشبه التحام الحركة البورجوازية الصغيرة ـ الاشتراكية مع الجناح القومي في حركة التحرر القومية، وبرغم أن هذا يدور ببطء وتؤدة وهي من الصفات المميزة في حركة في حركة البورجوازية الصغيرة وكذلك في وجودها الذاتي والموضوعي وشروط وظروف الفاعلية والتأثير، وفي نفس الوقت ظل المصير الذي لا يمكن تفاديه كما هو ثابت، بأن الاشتراكية البورجوازية العربية الصغيرة كانت قد قامت بمحاولة للخروج من مواقفها المتناقضة من خلال أفكار الوحدة والاشتراكية داخل حركة التحرر، وليس أخيراً، من إدانتها بمعاداة الشيوعية، وباهتزاز الثقة مع الطبقة العاملة قد أدت إلى فشل تلك المحاولات.

وهكذا كان الشيوعيون العرب في فعالياتهم الصعبة، ذات التضحيات، يقفون في الصفوف الأمامية للحركة الوطنية التحررية لشعوبهم وفي النضال الأيديولوجي المركب، وفي النضال المعادي للرأسمالية أقوى باستمرار وفي المقدمة اعتبار مصالح القوى غير البروليتارية.

هوامش البحث

1. Lenin,W.I : Werke, Bd.5, Berlin 1959, S. 408

2. Lenin, W.I.,Werke, Bd.8, Berlin 1959, S. 206

3. حول نضال الأحزاب الشيوعية العربية، سنجده في مبحث لاحق

4. Marx, K, / Engels, F , : Werke, Bd, 21 : Berlin 1962, S. 305

5. Marx, K, /Engels, F, : Werke, Bd, 21, Berlin 1962, S. 305

6. Der Islam und der Prinzipien des Staates. Unttersuchung über Kalifat und Regierung im Islam. Von Ali Abdulrraziq(Aus züge) . In : Schacht, J. : Der Islam mit Ausschluß des Qorans. Tübingen 1931, S. 184. F.

7. Höpp, G, : Zur Rolle Internationaler Panislamoscher Organisation in der Befreiungsbewegung der arabischen Völker, In : Asien, Afrika, Lateinamerka 1969, S. 159, ff.

8. Marx, K,Engels, F : Werke, Bd, 1, Berlin 1961, S. 388

9. Robbe, M. : Nationalismus in Befreiungs- Kampf der Völker Asiens und Afrika in Deutsche Zeitschrift für Philosophie, Berlin, 6/1968, S. 750

10. Markov, W. : wege und Formen der Staatsbildung in Asein und Afrika seit dem zweiten weltkrieg(Thesen) in zeitschrift für Geschichtswissenschaft, Berlin 6L 1970, S. 728

11. Bruntenc, K, : Voprosy ideologii nationalno osvoboditez nomdvizennii. In : Kommunist, Moskva, 18/ 1466 , S. 38

12. Khouri, R. Position de la question national dans le monde arabe. In Abdel Malk. A. Lapensee Poliique arabe Contemporaine. Paris 1970, S. 95 f

* هذه شهادة مهمة جداً تبرئ الحركة القومية العربية من الاتجاهات الظاهرة أو الكامنة العرقية منها أو الدينية الطائفية. المترجم

13. Markow, W : a.,a., o. S. 743

14. Hucri, C. , Al : Primute de i, arabisme. In : Abdsl Malek A : a. A. O. , S. 203

15. Ebeid, M., : Les Egyptiens sont des Arabes. In Abdel Malek . A : a., a., o., S. 206

16. Motagne, R., :Reaccion arabe contre le Sionismus (le Congre,s de Bloudane) . In Entretiens sur l,evolution des Pazs de civilisation arabe, Bd. Paris 1939, S. 47

17. Laissz, M, : Du Panaarabisme a la Ligue arabe, Paris 1948, S. 104 ,F

18. Azzam, A.R. : La Ligue arabe et lmunite modial, In : Abdul Malik, A, a, a, o, S. 208

19. Moussa, S., : Intellectual Currentsin Egypten . In Middle Eastern Affairs, New York. 2/ 1951, S. 74

A.A. 20، Moustafa : مصطفى تاريخ الفكر السياسي في مصر الحديثة القاهرة 1971 ص74

21. Oriente Moderno, Rom, X11, S. 39.f

22. Lenin, W, I: Werke, Bd 30, Berlin 1969, S. 147

23. Lenin, W. I. : Werke Bd 31, Berlin 1959, S. 139

24. Lenin, W. I, : werke, Bd 20, Berlin 1961 : 415

25. Ebenda, S. 19f

26. Lenin, W. I. : Werke, Bd.15, Berlin, 1962. S. 216

27. Musa, S. : Ishtirakiyya, 1913, In Hanna, S. S. A. / Gardner, G. H. (eds) : Arab Socialism, Leiden 1969, S. 275

28. Musa, S. : Ishtirakiyya. 1913, In , Hanna; S A Gardner; G: H. Socialism, Leiden, S. 275

29. السعيد، رفعت: الفكر الاشتراكي المصري في مطلع القرن العشرين في الطليعة عدد 1968/10 القاهرة ص63

30. Levin, Z, I, : Socialisticeski idei na Arabskom Vostokev naeale xx veko, In : Narody Azii, Afrika, Moskva 5/ 1968, S. 65

31. Berque, J , : Islam et Sozialismus, In Revue de l, Institut Soziologie, Bruxelles, 1967, S. 202 f

32. نشر طاهر حداد عام 1930 كتابه الجديد بالاهتمام " إمرءتنا في الشريعة والمجتمع" وهذا الكتاب من بين كتب أخرى طرحت بقوة قضية تحرر المرأة هي قضية اجتماعية أكثر مما هي قضية دينية، وقد منع الكتاب، وطرد مؤلفه من جامعة الزيتونة.

33. Haddad, T. : La Tunisie et la Socialisme. In : Adel Malek, A: a. A. O. , S. 238

فهرس المحتويات

الشرق في عيون الغرب

الكتاب والكاتب

هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة منتقاة من البحوث والمقالات معظمها مترجم عن اللغة الألمانية، وأخرى دبجها المؤلف بنفسه ونشرها في أوقات سابقة في مواقع شتى.

العلاقة بين الشرق والغرب انطوت على صراعات وحروب، ولكن على تفاعل إنساني أيضاً وعلاقات ثقافية وعلمية على الأغلب، إذن لنركز على العلاقات الإنسانية فهي الأبعد دواماً، والأكثر فائدة ونفعاً. وهذا الكتاب محاولة باتجاه تكريس علاقات جيرة حسنة وإنسانية ذات ثمار لنا ولهم وللبشرية جمعاء.

* الكتب المطبوعة :

1. المقدمات السياسية للاستقلال الوطني في العراق. (أطروحة ماجستير باللغة الألمانية / لايبزغ / ألمانيا).
1977 Leipzig .Die Politischen Voraussetzungen der Natinalen unabhängigkeit des Irak.
2. سياسة التوسع الأمريكية في الشرق الأوسط (أطروحة دكتوراه باللغة الألمانية / لايبزغ / ألمانيا).
1981. Die Expansionspolitk der USA im Nahenosten, Leipzig
3. حرب فوكلاند / الأبعاد السياسية والاستراتيجية للصراع البريطاني الأرجنتيني حول جزر فوكلاند. بيروت ، بغداد / 1985، المؤسسة العربي للدراسات والنشر.
4. قوة العمل الدبلوماسي في السياسة. دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد / 1985.
5. قضايا الأمن القومي والقرار السياسي. الدار الوطنية للنشر والتوزيع، بغداد / 1986.
6. تطور نظريات الحكم والسياسة العربية. جزءان : العصر القديم والوسيط بغداد / 2006.
7. تطور نظريات الحكم والسياسة العربية، العصر القديم (نشر كمسلسل في مجلة البلاد)، تورنتو / كندا، 2007.
8. أشهر الخطابات في تاريخ العرب والإسلام، دار ضفاف دبي / الأمارات المتحدة، 2013.
9. الاستهلال والاستكمال دراسة مقارنة الفكر السياسي الرافديني / الاغريقي، الدوحة / دار ضفاف / دبي، 2014.
10. الاستهلال والاستكمال: دراسة في الفكر السياسي المقارن ، العربي الإسلامي/ المسيحي الليبرالي. دار ضفاف، دبي، 2014
11. الحرب الأهلية الأسبانية، (ترجمة) تأليف زيغفريد كوكلافرانتز ، دار ضفاف / دبي ، 2014.
12. قبر أبو غريب كان حزيناً، شهادة في التاريخ العراقي الحديث، دار ضفاف / دبي ، 2014.
13. محاضرات في الإعلام والرأي العام ، دار الأكاديميون / عمان/ المملكة الأردنية الهاشمية 2014.
14. مباحث في الفكر السياسي الإسلامي: دار الأكاديميون / عمان / المملكة الأردنية الهاشمية 2014.
15. محاضرات في العلوم السياسية، دار الأكاديميون / عمان / المملكة الاردنية الهاشمية. 2014
16. نظام الخلافة العربي الإسلامي، دار الأكاديميون / عمان / المملكة الأردنية الهاشمية. 2014.
17. الشرق في عيون الغرب: (ترجمة وإعداد)، دار الأكاديميون / عمان / المملكة الاردنية الهاشمية. 2014.
18. حقيقة الأشياء : (ترجمة)، دار الأكاديميون / عمان / المملكة الأردنية الهاشمية. 2014.

* الكتب المنشورة في المواقع الالكترونية :

1. مذكرات تحت المقصلة : يوليوس فوجيك (مترجم) الكتاب العراقيين، الولايات المتحدة / 2009
2. تطور نظريات الحكم والسياسة العربية. موقع المتوسط / لندن 2011
3. استخدام القوة المسلحة في العلاقات الدولية ، موقع البلاد، تورنتو / كندا / 2013







الأكاديميون للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
تلفاكس: 5330508 6 962+
E.mail.academpub@yahoo.com

الرمال للنشر والتوزيع
عمان - الأردن
مقابل البوابة الرئيسية للجامعة الأردنية
تلفاكس: 08 05 533 6 962+
E.mail:alremalpub@live.com

9 789957 590321 >